الفكاهة والسخرية

عند حافظ إبراهيم

تأليف

الدكتور عبد العاطى كيوان

أستاذ الأدب الحديث المساعد

جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ ش عدلى - القاهرة

الناشر : مكتبة النهضة المصرية .
٩ ش عدلى - القاهرة .
تليفون : ٣٩٥٦٧٧١
فاكس : ٣٩١٠٩٩٤
رقم الإيداع : ١٤٦٦٧
الترقيم الدولى : 5 - 198 - 200 - 977

الطبعة الثالثة : ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

الإهداء

إلى روح أمى فى عالم الخلود السرمدى ، فقد رحلت عن دنيانا وأنا أكتب هذه الصفحات، فكأننى قد فقدت بموتها حنان الدنيا كلها .

رحمك الله يا أمى ، رحمة إذا صعدت إلى السماء ، كانت سراجًا أضاء جنبات الكون ، وإذا نزلت إلى الأرض ، كانت فيضاً ، وضياءً ، ونوراً .

« إنى رأيت أنــه لا يكتب أحــد كتابًا فى يومه،
إلا قال فى غــده : لو غُيِّر هــذا لكــان أحــسن ،
ولو زِيدَ هذا لكان يُستَحْسن ، ولو قُدِّمَ هذا لكان
أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ،
وهذا من أعظم العِبَر ، وهو دليل
على استيلاء النقص على
جملة البشر » .
(العماد الأصفهانى)
(١١٢٥ـ ١٢٠١ م) .



بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم :

يزخر التاريخ الإنسانى على مدار عصوره ، بعطاء وافر من الإبداعات الأدبية الرفيعة ، التى تجعل من الإنسان سيدا على هذا الكون ، بما يملكه من وسائل التعبير ، وبما يسعه عقله من خيال خصب ، واسع معطاء .

من هنا كان تعدد هذه الإبداعات المثمرة ، دليلاً صادقاً على عمق التفكير الإنسانى وتفوقه ، بما يحتويه من ثراء بالغ ، أنجزته البشرية خلال قرونها الطويلة ، وأزمانها البعيدة .

وعلى الرغم من تنوع هذه التجارب فيما بينها ، إلا أنها تنهل -جميعها- من معين واحد ، وإن اختلفت غاياته واتجاهاته ومشاربه ، ذلك هو معين الأدب الخالد ، الذى يستبطن عالم النفس الإنسانية ، والذى حفظته لنا قريحتها ، وصدرته إلى أجيال تالية لها ، بعدما نفثت فيه شيئاً من الفن والسحر والجمال .

لقد رافق الأدب الحياة الإنسانية عبر عصورها ، لم يتخلف فى عصر منها ، وإنما ظل ملازماً للإنسان كظله ، يرسم حياته ، ويسجل مآثره ، بل ينشد ما يجب أن تكون عليه هذه الحياة .

وإذا كان الأدب يشمل كل ما أنتجه الإنسان ، إلا أننا نقتصر هنا على الآداب الإنسانية ، التى تحلق بالفرد إلى آفاق لا حدود لها ، من المتعة والذوق والجمال .

وإذا كان الأدب قد لازم الإنسان فى كل مراحله الحياتية - كما تقدم - فإن ما دوّن منه يعد من القلة بمكان ، فقد كانت تلك الملازمة شفاهاً أو نقلاً يتوارثه الخلف عن السلف ، وهكذا كان .

وبالرغم من هذه الفجوات الكبيرة فى أعماق التاريخ ، فقد عثر الأثريون على كثير من النقوش ، التى حفظت تاريخ الإنسانية وتراثها ، وهو قليل قليل ، إذا قيس بما أنتجته قريحتها عبر القرون .

إن تلك النقوش والتصاوير ، التى وجدت على أوراق البردى بمقابر المصريين القدماء ، وغيرهم من شعوب الأرض ، لم تعبر تعبيراً تاماً عن النتاج الإنسانى جميعه ، حيث خضع كثير منها لما كشفت عنه الأقدار ، وأبانت عنه الصدف وحدها .

وإذا كان الإنسان فى أغلب عصوره قد اعتمد على النقل والرواية ، وكذلك على التسجيل اليدوى لآدابه وتراثه ، فإن ذلك ليدل على وصول القليل من هذا التراث إلى عصورنا ، كما يدل كذلك على النحل والتحريف والتزييف ، الذى شابه فى كثير من الأحيان ، بسبب تواتر النقل ، وتقادم السنين ، والحقب الطوال ، ثم اختلافات الرواة واعتناقهم لمذاهب بعينها ، إلى آخر هذه الأسباب .

ومن هنا ، فلا تقاس تلك العصور بعصر كالذى نحياه ، وقد انتقلت الحضارة نقلات سريعة ، وسجل كل ما تقع عليه العين ، بأحدث ماوصلت إليه الإنسانية المعاصرة .

ولقد تعددت فنون الأدب ، التى تدور حول الإنسان ، وإن اتفقت جميعها على تسجيل ما أبدعته قريحته ، وجادت به سجيته فى هذا العالم، منذ وطأت أقدامه الأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد نظر الإنسان إلى هذا الكون ، المترامى الأطراف من حوله ، فهالته تلك المناظر البديعة ، فأخذ يتأملها ويتغنى بها تارة ، ثم يفسرها ويألفها تارة أخرى .

وبذلك امتزج مع الطبيعة بوصفه جزءاً منها ، ماراً بمراحل عدة ، من التفكير والتأمل والشرود ، فخرج من المرحلة البدائية ، إلى مرحلة التأمل والتفكير الفلسفى ، ثم إلى العصر الحديث ، وفى أثناء تلك النقلات ، التى لازمته ، كان يصور هذه النفس ، مع كل مرحلة من تلك المراحل ، سواء أكان جاداً أم هازلاً ، مرحاً أم مكتئباً ، ساخراً أم مازحاً ، حالماً أم واقعياً .

وإذا كان الدافع إلى الفكاهة ، هو قدر الحياة وظلامها ، فقد عاش المصرى - رغم كونه فى بحبوحة من العيش - مراحل من الكدر والبؤس والشقاء ، يتقلب بين أتونها جميعا .

وإذا كانت الفكاهة ، قد ارتبطت بمصر والمصريين ، منذ فجر حضارتهم الإنسانية على ضفاف النيل ، فإن ذلك كان نتاجاً لما مر بهم ، عبر عصورهم المتواترة على هذا الوادى ، فقد ظلت مصر مقصداً للغزاة والغاصبين ، ومرتعاً خصباً للحكام منهم ، فى مراحل متكررة من تاريخها الطويل .

وعلى الرغم من أن مصر «كانت أول حضارة - فهى للأسف - أطول مستعمرة فى التاريخ ».[1]

وكان ذلك - لاشك - ينعكس سلباً على نفوس أبنائها المخلصين ، فإذا أعوزهم الدفاع عن ديارهم ، انكفأوا على ذواتهم ، ولكن إلى حين ، غير أنهم ينصرفون إلى شىء آخر ، يتخذون منه أسلحة حادة ، تنبثق منها النكتة الساخرة ، والسخرية اللاذعة ، يطلقونها على البديهة والفطرة ، فتجعلهم وكأنهم قد تخلصوا - على نحو ما - مما يبطنون من سخط وكراهية ، كما تشعرهم وكأنهم قد حققوا نوعاً من الانتصار ، وإن كان بسلاحهم هم .

(١) انظر : د. جمال حمدان : الشخصية المصرية - (دراسة فى عبقرية المكان) الطبعة الثالثة- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٤ . ص ٥٤٤ .

ومن ثم ، لم يكن غريباً ، أن نجد الفكاهة بين مأثورات المصرى القديم ، يوصى بها أقرانه وذويه .

وقد سار المصرى الحديث على نهج أسلافه ، وإن اختلفت موضوعاته ، وتباينت قضاياه .

والفكاهة عند شاعر النيل تنحو هذا المنحى ، وتدور فى الفلك ذاته ، باعتباره واحداً من أبناء النيل ، ومن حسن الطالع ، أنه ولد فوق أمواجه ، فى «عوامة» على ضفافه ، فكان ابناً له بحق ، ومصرياً حتى النخاع .

أما عن السخرية فى شعره ، فإن موضوعها فى الأدب ، ليس موضوعاً جديداً أو طارئاً ، وإنما هو موضوع قديم فى التراث الإنسانى ، فإذا كان حديثاً قد وجد بين ثنايا الإبداع ، لدى طائفة من الأدباء والظرفاء فى عصورنا ، فإننا نراه قديماً ، وقد استخدم فى أقدس الآداب الإنسانية ، وأعظمها أسلوباً ، وبياناً وشأناً ، ذلك مانجده فى كثير من الآيات القرآنية، التى تحدد العلاقة بين الله والإنسان .

وبهذا لاينبغى أن ننظر إلى هذا الموضوع نظرة تدنٍ أو احتقار ، وإنما ننظر إليه ، بوصفه نوعاً أدبياً ، له أثره ، ووظيفته ، وغايته ، فيغدو وقد تحقق ذلك الأثر ، وهذه الوظيفة ، وتلك الغاية .

لقد حفل الخطاب القرآنى بعدد وافر من الأساليب الساخرة ، التى تحط من بعض الأفراد ، كى يستقيم منهجهم فى الحياة ، ويبلغوا مرتبة عالية من الإنسانية والرفعة والرقى .

ومن ثم ، تعددت أساليب السخرية ، واختلفت أغراضها ، من غرض إلى غرض ، ومن موضوع إلى آخر ، تبعاً لاختلاف المواقف والأحوال ، معبرة عن كل مرحلة منها ، بما يناسبها من هذه الأساليب والأغراض .

لقد تفتق خيال الأدباء ، والمفكرين ، والفلاسفة ، فى شتى العصور ، عن شىء من الملح ، والنوادر ، والدعابات ، يقطعون بها أسمارهم ، ولياليهم الطوال، ومجالسهم التى تعج بالخلان والمحبين ، وقد اختلطت بشىء من السخر والتهكم ، وإن اتصلت جميعها بغرض واحد ، وهدف تتبلور من خلاله ، هو نقد الآخرين ، واستهجان بعض أفعالهم ، وسلوكياتهم المنحرفة ، أو المتطرفة ، أو النائية عن سلوك الجماعة ، أو تلك التى تخرج عن قيمها المعروفة ، وتتعارض معها .

وفى هذه الدراسة نعرض لأنماط منها ، عند واحد من أربابها الكبار ، فى عصرنا الحديث ، هو الشاعر حافظ إبراهيم [1]

وإذا كان شعر حافظ ، قد دُرس دراسة شاملة تراوحت فيما بين الاتجاهات الوطنية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فإننا نركز الضوء هنا على هذا الجانب وحده ، بعد أن أصبح قاسماً مشتركاً ، وسمة لإبداعه الشعرى .

إن حافظ إبراهيم هو شاعر مصر الاجتماعى ، وهو شاعرها الوطنى ، والسياسى ، لامراء فى ذلك ، وليس ذلك مما قصدناه ، وإن كنا لانهمله ، وإنما نطرق بهذه الدراسة جانباً آخر ، لايفترق كثيراً عن تلك الجوانب ، وإنما يحتويها جميعاً .

إننا نبتغى من ورائها ، دراسة أساليب التهكم والسخرية عند شاعر

---

(١) ولد حوالى سنة ١٨٧٢ وتوفى سنة ١٩٣٢ . أما مؤلفاته الأخرى فهى :

- «البؤساء» ترجمه عن الفرنسية سنة ١٩٠٣ .
- «ليالى سطيح» ألفه سنة ١٩٠٨ .
- كتيب فى التربية ترجمه عن اللغة الفرنسية بتكليف من وزارة المعارف سنة ١٩١٢ .
- الموجز فى علم الاقتصاد ترجمه بالاشتراك مع الشاعر خليل مطران وطبع فى مطبعة دار المعارف ١٩١٣ .

النيل، غير أننا لم ندخل إليها من باب الدعابة والنكتة ، وإن وجدت عند شاعرنا ، وإنما ندخل إليها من باب آخر ، هو باب الهجاء ، الممزوج بالسخر والتهكم ، الذى شمل كثيراً من أشعاره وقصائده .

فقد انفرد حافظ إبراهيم ، من بين شعراء عصره - المحافظين - بهذا الأسلوب «التهكمى» وجدناه فى قصائده الوطنية ، وفى قصائده السياسية، وفى قصائده الاجتماعية ، بين ثناياها جميعاً ، سوطاً يلهب ظهور الأمة ، ويكشف عن سوءاتها ، ويستهجن أفعالها ، فأبان بذلك عن غرض واحد ، وهدف لم يخطئه ، هو الحض على النهضة ، ثم بعث النخوة ، بعد الموات والخمول ، والكسل ، الذى ران على قلوب المصريين ، وحجبهم عن العمل والتسابق عصوراً طويلة .

وهكذا دار هذا الموضوع على محاور متعددة ، تبلورت جميعها ، فى عللنا الاجتماعية ، وصراعاتنا السياسية ، وأهدافنا الوطنية ، استخلصناها من بين أشعاره وقصائده ، فارساً يحارب بالكلمة ، ويفتح بها أبواباً واسعة، أمام وطنه ، وشعبه ، وأمته .

عبد العاطى كيوان

فيصل / الهرم فى ٢٢/١٠/١٩٩٧

مدخل إلى الدراسة :

إن أول ما يتبادر الى أذهاننا ، ونحن بصدد هذه الدراسة ، هو تعريف معنى «الفكاهة» و «السخرية» وقد أورد صاحب القاموس عدداً من الألفاظ التى تدور فى هذا المعنى :

ـ فَكَّهَهُمْ بِمُلَحِ الكَلام تَفْكيهاً : أطْرَفَهُمْ بها ، والاسمُ : الفكيهَةُ والفُكاهَةُ ، بالضم . وفَكِهَ ، فَكَهاً وفَكاهَةً ، فهو فَكِهٌ وفاكِهٌ : طَيِّبُ النَّفْسِ ضَحُوكَ ، أو يُحَدِّثُ صَحْبَهُ فَيُضْحِكُهُمْ ، والتفاكُهُ : التَّمازُحُ . وفاكَهَهُ : مازَحَهُ . وتَفَكَّه : تَنَدَّمَ ، وبه : تَمَتَّعَ ، وأكَلَ الفاكِهَةَ ، والأُفْكُوهَةُ : الأعْجوبةُ ، وفَكِهَةٌ وفُكَيْهَةُ ، امرأتان . وهو فَكِهٌ بأعراضِ الناس : يَتَلَذَّذُ باغتيابهِمْ . وقوله تعالى ﴿ فَظَلْتُم تَفَكَّهون ﴾ تَهَكَّمُ ، أى : تَجْعَلُونَ فاكِهتَكُم قولكم : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ . أو تَفَكَّهَ هنا ، بمعنى : ألْقَى الفاكِهَةَ عن نفسه،[1] وقد جاء هذا المعنى فى أربع مواضع من القرآن الكريم [2] تدور كلها فى سياق التهكم ، والتلذذ ، والتعجب ، والاستخفاف .

قال تعالى :

﴿ لو نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [3]

﴿ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَـٰكِهِينَ ﴾ [4]

﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴾ [5]

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴾ [6]

---

(١) القاموس المحيط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان (د : ت) مادة (فكه) .

(٢) فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : بيروت – لبنان (د.ت) مادة (فكه) .

(٣) سورة الواقعة : الآية (٦٥) .

(٤) سورة المطففين : الآية (٣١) .

(٥) سورة يس : الآية (٥٥) .

(٦) سور الدخان : الآية (٢٧)

أما (السخرية) فهى:- سَخَر منه وبه، سَخْرًا وسُخْرةً ومَسْخَرًا وسُخْراً وسُخُرًا: هَزِئَ، كاستَسْخَرَ. والاسم: السُخْريةُ والسُّخْرىُّ، ويكسرُ وسخره، سخْريًا، بالكسر ويضم: كلفه مالا يريد، وقهرهُ وهو سُخْرةٌ لى وسُخْرىٌّ وسخْرىٌّ. ورجل سُخَرةٌ: يَسْخَرُ من الناس. وسخرت السفينةُ: طابت لها الريح والسير. ﴿وإن تسخروا منا، فإنا نَسْخَرُ منكم كما تَسْخَرُونَ﴾ أى: إن تستجهلونا، فإنا نستجهلكم، كما تستجهلوننا. وسخره تسخيرًا: ذَلَّلَه، وكلفهُ عملاً بلا أُجْرَةٍ(١).

وقد وردت هذه اللفظة فى أحَدَ عَشَرَ موضعًا من آيات القرآن الكريم(٢)، وقد احتوت هذه الآيات على وجوه ومضامين متباينة لهذا المعنى؛ فمنها: ما ينهى عن السخرية نهيًا مطلقًا، كأن تكون موجهة إلى الجماعة فى غير هدف، أو سبب ظاهر. فى مثل قوله تعالى ﴿يَاأَيُّها الَّذين آمنوا لا يَسخرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيرًا منهم...﴾(٣).

ومنها: ما يكون غرضها منع الأذى ورد العدوان. ونجد ذلك فى قوله تعالى: ﴿ويصنع الفلكَ وكُلَّمَا مرَّ عليه ملأٌ من قومه سَخِروا منه قال إن تَسْخروا منَّا فإنَّ نَسْخَرُ منكم كما تَسْخَرُون﴾ (٤).

أما غالبية هذه الآيات، فإنها تشير إلى استهزاء الكافرين بالرسل والمؤمنين، ولكنها فى الوقت ذاته، تشتمل على سخرية الله تعالى منهم، بل وتنذرهم بعذاب أليم، وتلك سخرية مشروعة. قال تعالى: ﴿ولقد استُهزِئَ برُسُلٍ من قبلك فحاقَ بالذين سَخِرُوا مِنهم ما كانوا به يَستَهزِءون﴾ (٥)

---

(١) القاموس المحيط: مادة: (سخر).

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة: (سخر).

(٣) سورة الحجرات: الآية: (١١). (٤) سورة هود: الآية: (٣٨- ٣٩).

(٥) سورة الأنعام: الآية: (١٠).

وقوله: ﴿فيسخرون منهم سَخِرَ اللهُ منهم ولهم عذابٌ أليم﴾ (١).

وهناك آيات لا تشتمل على هذه اللفظة ولكنها تدور فى الفُلك ذاتـــه، فتتشعب أغراضها، وتتباين أهدافها، فقد تكون لبيان وضاعة الفعل وتحقـــيره، كأن تبرز ما عليه الكفار من انحراف وضلال، وذلك فى قوله: ﴿قالوا ءَأنـــتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يإبراهيمُ قال بل فَعلَه كبيرُهم هـــذا فَسْـــئلُوهم إن كـــانوا ينطقون﴾ (٢).

ومنها: ما يكون هدفه الإصلاح والاهتداء والتقويم، قال تعـــالى: ﴿إنَّ الذين تدْعونَ من دون الله عِبَادٌ أمثالُكم فَادعوهم فَلْيَسْتجيبوا لكم إنْ كنتـــم صَادقين. أَلَهُم أرجُلٌ يمشُونَ بها أم لهم أيدٍ يَبْطشونَ بها أم لهم أعينٌ يُبْصرُون بهـا أم لهم آذانٌ يسمَعُون بها قل ادعوا شُرَكآءكم ثم كِيدُون فلا تُنظرون﴾ (٣).

وفى ضوء ذلك، ينبغى أن نوضح. أن السخرية فى الأدب، أسلوب مـــن أساليب النقد، الموجه للأفراد والجماعات، يحارب عللهم، ويجابه تقصـــيرهم، ويقوِّم عيوبهم؛ مهما كانت وسائله وغاياته.

غير أن الفكاهة تختلف فى ذلك بعض الاختلافات، فقد تحمل ســـخرية وضحكاً، وقد تكون للضحك دون سواه.

ولا شك أن النفوس – بطبيعتها – أكثر تقبـــلاً لمـــا يثـــير الضحـــك والسخرية لتدفع به أسباب السأم، الذى يصاحب التزام الجد والتوقير، وما

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٧٩).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: ٦٢، ٦٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٩٤، ١٩٥).

يلقى على قسمات الوجوه من سحائب الكدر والعبوس ، ومن التزمت، الذى فى كثير من الأحيان ما ينفر الجلساء ، وينافى خفة الروح ، ويصيّر الإنسان إلى حياة الوحدة ، واعتزال الناس» [1].

وقد اختص الله أناساً دون غيرهم ، فوهبهم قريحة صافية ، وذهناً متوقداً ، وقلباً عطوفاً ، ولساناً عذباً رقراقاً ، يفيض بالقول الجميل ، ويشدو باللفظ السلسبيل ، فتهش له الأسماع ، ويأخذ بلبابها القلوب ، وتحلو به المسامرة .

إنها سمة أضحت قصراً على هؤلاء وحدهم ، ممن توافقت قريحتهم هذه مع واقعهم ، فعبروا عنه بالنكتة العابرة ، والدعابة الصافية ، والسخرية المؤثرة فى غير إسراف أو خروج أو تدنى .

وكان حافظ ابراهيم واحداً من هؤلاء ، الذين أضحت على ألسنتهم الكلمة فيضاً رقراقاً ، وكأنها النبع المغدق على من يحيطونه .

لقد دار حافظ فى فلك تلك الكوكبة ، من ظرفاء مصر وأعلامها ، كالبشرى [2]، والبابلى [3]، وإمام العبد [4] ، وغيرهم ،ممن عاصرهم الشاعر وعاش بينهم .

---

(١) د . بدوى طبانة : نظرات فى أصول الأدب والنقد ط أولى عكاظ للنشر والتوزيع .. المملكة العربية السعودية ١٩٨٣ ص ٢٥٠

(٢) هو عبد العزيز البشرى (١٨٨٦ - ١٩٤٣) ، أديب مصرى ، تعلم بالأزهر وولى القضاء الشرعى، من كتبه : (فى المرآة) ، والمختار ، وقطوف ، التربية الوطنية . الأعلام للزركلى- دار العلم للملايين ١٩٧٩ ، ١٨/٤ .

(٣) هو محمد البابلى ، من كبار رجال الجواهر فى مصر ، اشتهر بظرفه وفكاهاته ، توفى سنة ١٩٢٤ .

(٤) شاعر مصرى ، توفى سنة ١٩١١ . الأعلام : ٤٠/٦ .

فقد كانت الفكاهة ملمحاً من ملامح الأدب فى تلك الحقبة ، التى عاش فيها حافظ مع هؤلاء الخلان ، من الأدباء ورجالات الفن فى عصره .

«لقد وهب حافظ رغم بؤسه خفة فى الروح ، وسرعة فى الخاطر ، وحضوراً فى البديهة ، وقد خلق ذلك كله منه رجلاً بارعاً فى الفكاهة وصوغ النادرة . وليس من شك فى أنه كان يتخذ من ذلك وسيلة للتنفيس عن شقائه وحرمانه ، فكان فى بؤسه صورة صادقة للمصرى الصميم ، فإن من أخص صفات المصرى ، أنه صاحب نكتة ، يرسلها فى كل وقت ، وفى كل مناسبة ، وبخاصة فى أحلك أيامه العصيبة ، بل إنه ينتزع نكاته من الخطوب التى تحدق به ، وقد منحت الطبيعة حافظاً قدرة فائقة على إزجاء الفكاهة اللطيفة ، والنادرة المستملحة ، فراح يضحك من البؤس ، ومن الشقاء، ومن الأوضاع المقلوبة ، ومن الأحداث ، ومن كل شئ» [1] .

إنها شخصية متناقضة ، ترى الأشياء بروئ متباينة ، وتجتمع فيها الأضداد ، حتى يخيل إلينا أننا أمام عدد من الشخصيات المتنافرة ، المتلاقية أحياناً ، غير أن هذا لايكون إلا مع واحد كحافظ ابراهيم ، الذى اجتمعت عليه الأرزاء ،وتناوبته المحن ، وتنكرت له الأيام ، كما توهم .

ولهذا جاءت سخرياته صدى لتلك الجوانب ، ومرآة صادقة لها، فمنها : ما يسخر فيها الشاعر من نفسه .

ومنها : ما يسخر فيها من الأصدقاء ، سخرية امتزجت بدعاباته ونكته ونوادره .

أما ثالثها : فقد عرض لنا الشاعر صوراً حقيقية لقضايا عصره ومشكلاته ، دون مزايدة منه أو تزييف لواقع لا يرضاه ، وقد نأخذ على

(١) د . عبد الحميد سند الجندى : حافظ إبراهيم شاعر النيل . ط ثالثة دار المعارف ١٩٨١ ص ١٧٩

حافظ مبالغته الشديدة إزاء تلك القضايا ، فقد وصف مصر والمصريين بأقبح الصفات وأحطها ، مبرزاً معايبهم ، وانحطاط أخلاقهم ، مفرغاً جام غضبه على الجميع ، ذلك ما كان يراه من :

أمةٍ قد فُتَّ في ساعدها ... بغضُها الأهلَ وحبَ الغربا
تعشقُ الألقابَ في غير العلا ... وتُفدّى بالنفوس الرتبا
وهي والأحداثُ تستهدفُها ... تعشقُ اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعبَ القومُ بها ... أم بها صرفُ الليالي لعبا [1]

ولعلنا بهذا نقف على الهدف الذى أراده شاعر النيل ، المعبر عن آمال أمته وطموحاتها ، كأبرز ما يكون التعبير ، وتلك مكانة لم يصل إليها أيٌّ من شعراء تلك المرحلة .

وعلى الرغم مما قيل فى ممالأته - أحياناً - للإنجليز ، ورغم ما قيل فى تذبذبه فى أحايين أخرى ، طبقاً لظروف العصر ، وظروف الشاعر ذاته ، فإنه على الرغم من ذلك كله ، سيظل يتبوأ من المكانة فى نفوس المصريين مالا يطاوله فيها أحد من شعراء ذلك الزمان .

ولهذا فإن الإهانات التى وجهها حافظ إلى الشعب ، لم تكن تقبل من غيره ، فقد كان يمثل مع كوكبة من أعلام جيله الشعراء مداً وجزراً ، أسمى مراتب الوطنية ، على أن حافظ كان أغزرهم إنتاجاً ، وأكثرهم التصاقاً بواقع شعبه ، وأشدهم إحساساً بالناس ، وأبرزهم غيرة وعزة نفس .

يقول الدكتور / شوقى ضيف :

«ولقد حاول الخديو عباس [2] أن يرعاه ، ولعل ذلك سبب مديحه له ،

---

(١) الديوان جـ٢ دار العودة - بيروت (د . ت) ص ٧ .

(٢) هو الخديو عباس حلمى الثانى (١٨٧٤ - ١٩٤٤) حكم مصر من سنة (١٨٩٢ - ١٩١٤) . انظر : الأعلام : ٣/٢٦٠ .

ولكن نفسه المصرية أبت عليه أن يكون من رعايا القصر وسدنته ، وبدلاً من أن يتجه إلى عباس ورعايته ، اتجه إلى خصومه الشعبيين ، وحامل لوائهم الشيخ محمد عبده ، الذى كان يكاتبه من السودان . إنه يفضل كسرة بيته وما هو فيه من عوز وإملاق ، على عباس وذهبه ، وانتصرت مصر فى شخصه على القصر وصحبه » (١)

ولسنا مع الدكتور/ عبد الحميد سند الجندى إذ يقول :

«ولم يتصل حافظ بسلطان أو أمير ، وقد حاول أن ينال شيئاً من الحظوة التى نالها شوقى عند الخديو عباس ، فكان يحتفل بمديحه فى المناسبات المختلفة ، ولكنه برغم هذا الاحتفال ، لم يبلغ بقصائده المكانة التى كان يبتغيها ، وكان يدافع عن قصر نفسه بأنه شاعر مُقلُ ، وليس من شك فى أن حافظاً كان يشعر بمرارة الحرمان من عطف الخديو وآلائه ، وكانت نفسه تتشوق إلى أن يتيح له شوقى مكاناً ولو ضيقاً لدى صاحب الأمر ، وقد انضم هذا الحرمان إلى ألوان الشقاء التى عاناها الشاعر فى حياته ، فنجم عن ذلك أن اتشحت نفسه بثوب من الحزن والبرمَ بالحياة ، فأكثر من الشكوى، وأخذ يندب حظه فى هذه الدنيا ، ورانت على نفسه مسحة كثيفة من التشاؤم والضيق ، وضعف الأمل فى صلاح حال الوطن ، فجاء شعره مثبطاً لعزائم الشباب ، مصوراً لهم مستقبل وطنهم فى لوحة قاتمة الظلال. »(٢)

وإذا كنا نتفق مع الدكتور سند الجندى فى بعض النقاط ، إلا أننا نختلف اختلافاً كبيراً فى بعضها الآخر .

---

(١) فصول فى الشعر ونقده ط ثالثة . دار المعارف ١٩٨٨ ص ٣٥٢ .
(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل : ص ١٧٥ .

فلم يكن - أبداً - شعر حافظ مثبطاً للهمم والعزائم ، وإنما كان معولاً يزلزل كيان أعداء الأمة ، ويحفز شبابها الناهض ، ذلك ما تنطق به أشعاره، وما تزخر به قصائده ، التى أضحت نبراساً ، لا يضيئ سبيل الأمة فحسب ، بقدر ما يضئ نفوسها ، ويمتزج بأرواح أبنائها ، فى غير لبث ، أو اختلاط ، أو تخاذل .

أما عن مصادر الفكاهة والسخرية عند شاعر النيل ، فإنها تتشكل من نواحٍ عدة:

أولها:- شخصية الشاعر ، ومابها من متناقضات ، حتى أنه تلتبث علينا الرؤية - أحياناً - ويحدوها شيء من الاختلاط . فإلى أى الجوانب ننحاز ؟!!

إن حافظ لايدعك لأى منها ، فهو يتركك فى إحداها ، حتى يخيل إليك أنها وحدها ، ثم لا تلبث أن ترى وجهاً آخر ، وطريقاً لم تألفه ، يختلف عن سابقه ويتعارض معه .

ثانيها :- يرجع إلى انتشار الثقافة فى عصره ، وبخاصة المجلات الفكاهية ، وعلى رأسها : «التنكيت والتبكيت» و «الأستاذ» و «حمار منيتى» هذه صحف ثلاث ، أفاد منها حافظ أدباً شعبياً ظريفاً ، وروحاً مرحة ، كانت تفيض أنساً فى المجالس والمنتديات ، وفى شعره أيضاً .»[1]

ثالثها:- المجتمع المصرى نفسه ، بما كان يعانيه ، من تمزق وخنوع وإحباط ، لما لاقاه من ظلم الحاكم ، وعنت المستعمر ، وقسوة الفقر ، والقهر، والعبودية ، ثم ازدراء الطبقات بعضها البعض ، فأنتج ذلك كله شخصية مصرية جديدة ، رآها حافظ ، فوقف منها موقفاً غير منحاز .

---

(١) أحمد محفوظ : حياة حافظ - الناشر العربى - القاهرة (د . ت) ص ٦٥ .

رابعها :- تجارب الحياة الواسعة ، التى خاض غمارها شاعر النيل ، مكتوياً بجمرها - أحياناً - هانئاً بها فى أخرى ، متقلباً فيها بين الضنك والشقاء ، والخوف والاضطهاد ، واليأس والأمل ، والأسى والترقب، عانى حافظ صنوفها وألوانها ، بإحساس الشاعر ، وروح الأديب، ونفس المصلح .

فإذا كان حافظ ، قد ترجم رؤية مصلحى عصره وفلاسفته ، فى شتى مناحى الفكر والحياة ، فقد ترجم أنَّات العامة والبسطاء ، كما ترجم آمالهم وأحلامهم ، حتى لو جاء بعضها فى نكات مبتذلة ، أو لغة ركيكة .

لقد «استطاع حافظ أن يتخلص من قيود الصنعة ، وهو يستمع إلى العوام ، يرمون بالكلمات القصيرة ، فيمثلون بها عواطفهم ونوازعهم أصدق تمثيل . وفى أدب العامة صدق وصراحة وإشراق ، لأنه يصدر عن النفس فى غير تكلف ، ويعبر عن مشاعر أصحابه فى جلاء . وكان من هم حافظ أن يسمر عند الخواص المصطفين من أعيان المصريين ، فينقل إليهم من حكمة العامة ، أمثال ماكان ينقله الأصمعى[1] من حكمة الأعراب ، فى مجالس الخواص ببغداد » [2]

ومن ثم فإن مقدرة الأديب ، تقاس بمدى براعته ، فى أن يفهم العامة معانى الخاصة ، وذلك بأن يكسبها ألفاظاً لا ترتفع عن أذهان العامة ، ولاتنحط عن أذواق الخاصة .[3]

---

(١) هو عبد الملك بن قريبْ الأصمعى ، راوية العرب ، توفى سنة (٢١٦ هـ/٨٣١م) انظر : الأعلام، ١٦٢/٤ .

(٢) د. زكى مبارك : ذكرى الشاعرين شاعر النيل وأمير الشعراء - المكتبة العربية - دمشق ١٣٥١هـ .: ص ٧١ .

(٣) راجع : البيان والتبيين : جـ١ - مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٧ . ص١٥١ ومابعدها .

ومع هذا ، فقد حافظ الشاعر على رونق العبارة ، على الرغم من إسقاط بعض الألفاظ المسفة ، التى هبطت إلى ألفاظ السوقى ، وتأباها الآداب الأخلاقية ، فحذفت من ديوانه ، وبقى منها مايتخيله القارئ ، فقد «كانت لحافظ خلوات وصبوات ، تحتاج إلى ذلك الهزل الطريف ، وماكان رحمه الله - يتورع عن مصارحة أصفيائه ، ببعض الألفاظ والتعابير، التى تتفق له ، أو لغيره ، فى أوقات العبث والمجون ، وله فى ذلك نوادر يحسن طيها عن القراء.» [(١)]

---

(١) د. زكى مبارك : ذكرى الشاعرين : ص ٧١ .

الباب الأول

فكاهات حافظ إبراهيم

الفصل الأول : جوانب من شخصية حافظ

الفصل الثانى : حافظ والأصدقاء

إن الفكاهة بوصفها أماً ، لما عُرف فى بابها من مسميات ، تنتقل بالإنسانية من واقعها العبوس ، إلى واقع تهيم فيه الأرواح ، فى سماوات المرح والانطلاق .

فما هى غايتها ؟! وما غرضها ؟! ووسيلة هى أم غاية ؟! إن الفكاهة ليست غاية فى ذاتها ، غير أنها وسيلة إلى غايات تبتغيها ، وأهداف تطلع إليها .

ومن ثم ، فهى وسيلة وغاية فى الوقت ذاته ، فإذا كان هناك جانب المتعة والترويح ، فإنه على الجانب الآخر ، يكون النقد والتقويم والإصلاح ، وإن توسل بالقالب الكوميدى الضاحك .

إن النفس تهفو دائماً إلى شىء من الفكاهة ، تمسح به ماران عليها من مكدرات الحياة وظلالها ، خلال رحلتها الحياتية المتكررة ، فإذا هى تعود سيرتها الأولى ، وقد لاقت شيئاً من الارتياح والتعالى ، على هذا الواقع الحزين .

لهذا ، كان البؤس ، والحزن ، والكدر ، من الأشياء الدافعة إلى عالم الفكاهة الرحب ، بما فيه من مؤثرات ، وما به من مسامرات ، تهيم بها النفس ، وتتلاقى معها .

يقول الدكتور زكريا إبراهيم : «وقد دلتنا التجربة فى كثير من الأحيان، على أن ازدياد إقبال الأفراد والشعوب على الفكاهة ، قد يقترن بازدياد قسوة المعيشة ، مما يدلنا على أن الضحك ، قد يكون فناً تبدعه النفس البشرية ، لمواجهة ما فى حياتها من شدة وقسوة وحرمان.» [1]

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك : مكتبة مصر - القاهرة - (د . ت) ص ٢٧٤ .

وقد يرجع ذلك إلى الإحساس - أحياناً - بتفاهة الحياة ، ورخصها فى عيون الناس ، وإن وشحت بشىء من البريق واللمعان .

غير أن الإنسان ، يلقى مرة أخرى بالسؤال : هل تستحق دموعنا ، وأحزاننا ، تلك الحياة ؟! بينما الموت يطارد الأحلام ، ويقطع الآمال ، ويزهق الأرواح ، ثم يلقى بها ، فى دوائر غير متلاقية ، فى عالم «الديمومة» والعدمية ، بظلامه النائى البعيد !!!

ولذلك أدرك الإنسان ، أن «الضحك هو العلاج الناجع ، الذى ابتكره عقل موجود مفكر ، يدرك اللانهائية ، ولكن تؤرقه فكرة «العدم» ويرين عليه حصار «الموت» وتقض مضجعه من حين لآخر أشباح «الفناء!!» والواقع أنه حينما تحوم حولنا أشباح الموت البغيضة ، فإن «الضحك» سرعان ما يجىء بعصاه السحرية ، لكى يبعد تلك الهواجس الكئيبة ، باعثاً فيما حولنا جواً انطلاقياً ، ملؤه اللهو والعبث واللاواقعية . وعندئذ لايلبث العالم الذى نعيش فيه ، أن يصبح حلماً لاحقيقة له ، وكأن مشاغلنا وآلامنا وهمومنا ، إن هى إلا أضغاث أحلام ««فالكوميديا» دواء مطهر ، يزيل من النفس أدران الهم ، والقلق واليأس والحقد والتشاؤم ، حتى لقد يصح أن نتحدث عن ضرب من «التطهير الكوميدى»[(١)]

وقد يكون الضحك نوعاً من التأديب ، لمن يتطاولون على المجتمع [(٢)] الإنسانى ، ويعبثون بأخلاقياته وقيمه الموروثه .

فيرى العقاد أن المرء يضحك من كل شئ يوضع فى غير موضعه ،

---

(١) المرجع السابق : ص ٨ .

(٢) انظر : هنرى برجسون : الضحك : ترجمة : سامى الدروبى وآخر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٧ ص ١٢٦ .

ويظهر بغير المظهر الواجب له ، وفى غير الصورة اللائقة به : يضحك من الشيخ المتصابى ، ومن الغبى المتداهى ، ومن الريفى الجلف ، الذى يتخايل فى زى أهل الحضر ، والوضيع المهين ، الذى يولع بسمت الأعزاء من أصحاب الشأن . يضحك ممن يصول صولة الشجاع المقتحم ، حتى إذا لاحت له بارقة من الوهم ، هرب هروب الجبان المذعور ، وممن يتغنى بالسماحة والجود ، حتى إذا دعى إلى البذل ، ظهر منه البخل ، وحار كيف يخلص من مأزقه ، وممن يتصدى لختل الناس ، فإذا هو مختول من أهون سبيل ، أو يتقدم بالعبث ممن يظن فيه الغفلة والحمق ، فإذا هو هزأة لذلك الغافل الأحمق فى نظره .[1]

ومن ثم ، تتراءى أمامنا صور شتى ، للفكاهة كمفهوم أدبى ، وإنسانى، فى جانبيها : الوسيلة والغاية .

غير أنه سيظل الغرض الأول من ورائها ، هو الضحك والإضحاك ، مهما كانت وجهتها ، أو فلسفتها ، على اعتبار أن الإنسان ، هو الكائن الذى منح تلك الميزة ، دون غيره من الكائنات الأخرى .

وفى ضوء ذلك ، لم يكن غريباً ، أن يصير الضحك مطلباً جماعياً وإنسانياً ملحاً . يقول الفيلسوف الفرنسى فولتير : «لو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم ، فويل للفلاسفة الذين لا يبسطون بالضحك تجاعيدهم، لأن العبوس فى نظرى مرض عضال» [2]

وهكذا يتبلور هذا المفهوم الإنسانى الخالص ، بما يشكله فى وجدان الشخصية الإنسانية ، بوصفه جزءاً مهماً ، فى بنائها الخُلقى ، وتكوينها السلوكى .

---

(١) مطالعات فى الكتب والحياة : مطبعة الاستقامة – القاهرة – (د . ت) ص ٩٥ .
(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك : ص ١٢٦ .

الفصـــل الأول

جوانب من شخصية حافظ

جوانب من شخصية حافظ

لاريب ، أن شاعر النيل ، حافظ ابراهيم ، قد عرف بدعاباته ونكته الناجزة ، سواء كان ذلك فى مسامراته أومجالسه الخاصة ، فإن لم تكن تسعفه البديهة الحاضرة فى سخره بالأصدقاء ، وجدناه ساخراً من نفسه ،ينعتها بالنكات اللاذعة ، التى تصل فيها إلى أقصى درجات السخرية والاستهزاء .

ويُروى أن له نتاجاً كبيراً فى هذا الجانب - شعراً ونثراً - ضاع جله ، ولم يصلنا منه إلا القليل مما وعته ذاكرة الأصدقاء ، أو ماأثر عنه فى ثنايا الكتب ، ولو حفظ ذلك كله ، لوصلنا أدبٌ وفير .

على أن حافظ نفسه ، كان يترفع عن التعبير عن ذلك شعراً ، فالشعر فن رفيع ، يجب أن يظل بمنأى عن تلك المسامرات ، التى قد تحط منه وتأخذ بهيبته ، «فكان إذا قال شعراً فى فكاهة أو مزح ، عده من سقط متاعه ، ولم ينظر إليه عندما يتخير شعره للنشر أو التدوين»[1] ومع ذلك فقد وصلناقدر غير قليل ، من القصائد التى تنزع هذا الإتجاه .

غير أن حافظ الذى يتمتع بتلك الحدة فى التعبير ، كان يملك نفساً بائسة ، وقلباً كسيراً ، وروحاً مكلومة لا يفارقها الأسى ، ولا يقبل عليها السرور ، ولا تهش لها الأيام ، ولا تستقر بها الأحوال ، حتى فى أهنأ أوقاتها ، وأوفرها حظاً ودعة وحبوراً، كما وصف هو نفسه ، عند إهداء «كتاب البؤساء» فيقول تحت عنوان إلى الأستاذ الإمام [2] :«إنك موئل

---

(١) أحمد أمين : مقدمة الديوان : ص ١٧ .

(٢) من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام (١٨٤٩ - ١٩٠٥) انظر الأعلام ٦/٢٥٢ .

البائس، ومرجع اليائس ، هذا الكتابَ أيدك الله - قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين ، وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب.»

ثم يقول فى المقدمة : «هذا كتاب البؤساء ، هو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه . ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصل مبلغ علمى إلى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيل قلمه ، ولو أن لى قلماً من أعواد أشجار الجنة وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى ، وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها فسموت إلى لباب مصاصها ، وأخذت منها حاجتى لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء»[1]

وعلى الرغم من هذا البؤس الذى ظهر به شاعر النيل، إلا أن المطلع على حقيقته وظروف عصره ، يجد غير ذلك . فهل كان بؤس حافظ بؤساً حقيقياً؟ - كما نظن - أم كان بؤساً مفتعلاً يسير فى موجة من التعبير والإنشاء ، أضحت سمة الأدباء والكتاب فى عصره ، ممن يملكون ناصية البيان ، ويؤثرون جمال التعبير . ؟ !!

يعقب على ذلك الدكتور طه حسين فيقول : ليس البؤساء من هذه الكتب التى نقرؤها فنعجب بكاتبها ونشعر بأن له على نفوسنا سلطاناً وفى

---

(١) البؤساء فيكتور هوجو . جـ١ . ط ٤ . تعريب حافظ إبراهيم . مكتبة الهلال بالفجالة . مصر ١٩٢٣ . المقدمة .

قلوبنا تأثيراً عظيماً، وإنما هو كتاب كغيره من الكتب فيه جودة وحسن ، وفيه إطالة وإملال ، فيه صحف قيمة ، وفيه ثرثرة لا تفيد . ولست أدرى لم اختاره حافظ وكلف نفسه ألوان الجهد والعناء فى ترجمته . فالحق أن شاعرنا قد تكلف جهداً عظيماً وعناءً شديداً فى هذه الترجمة ، ولست أدرى لم اختاره؟ بل ربما كنت أدرى ، فقد أذكر أنْ كان البدْعُ فى أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء الحال . والافتنان فى شكوى الناس والزمان . كان ذلك بدعاً فى العقد الأول من هذا القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدْعَ ويروجه.[1]

وذلك ما يؤيده واحد من أصدقائه المقربين ، هو الشيخ عبد العزيز البشرى ، فيقول : «كان حافظ أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً مما أصابت يده من الأموال ، لكان اليوم من أهل الشراء ، على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألف ، جن جنونه ، إن لم ينفقها فى يوم إن استطاع . فإذا استغلقت عليه أحياناً وجوه السبل لإتلاف الأموال، عد هذا أيضاً من معاكسة الأقدار ، ولعل هذا من إنه نضجت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) وقال فيه مالم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ، ويتفقده تفقداً ، إيثاراً لتجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام . وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده ، أحسب حافظاً يحققها بيده ، إذا قصرت فى تحقيقها الأيام .»[2]

ولهذا عندما نشاهد لوحاته الساخرة ، نجد ربطاً محكماً بين تلك الصورة البائسة التى رسمها لنفسه ، وبين صورة المجتمع البائس ، فتتكامل أمامنا لوحتان : لوحة ذاتية وأخرى جماعية ، تجسدتا فى لوحة واحدة ،

---

(١) حافظ وشوقى : ط أولى . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٣٣ ص ٨٥ .

(٢) ذكرى الشاعرين شاعر النيل وأمير الشعراء ، ص ١٤ .

تشير إلى نفس حافظ ، بوصفه رمزاً لإنسان ذلك العصر.

فيقول ارتجالاً فى بدلته الجديدة ، فى جمع من إخوانه ، سنة ١٩٠٠ :

لى كساءٌ أنعِمْ به من كساءِ	أنا فيه أتيهُ مثل الكسائى (١)
حاكه العزُّ من خيوط المعالى	وسقاه النعيمُ ماء الصفاءِ
وتبدَّى فى صبغةٍ من أديم الليـ	ـلِ مصقولةٍ بحسنِ الطلاءِ
خاطه ربُّهُ بإبرة يمنٍ	أو جروا سَمَّها خيوط الهناءِ (٢)
فكأنى - وقد أحاط بجسمى -	فى لباس من العلا والبهاءِ
تُكبرُ العينُ رؤيتى وترانى	فى صفوف الولاة والأمراءِ
ألف الناسُ- حيث كنت- مكانى	ألفة المعدمين شمس الشتاءِ
يا ردائى وأنت خير رداءٍ	أرتجيه لزينة وازدهاءِ
لا أحالتْ لك الحوادثُ لوناً	وتعدَّتك ناسجات الجواءِ
غفلتْ عنك للبلى نظراتٌ	وتخطتك إبرةُ الرفَّاءِ(٣)

وعن بدلته التى وصفها بأن فيها صفتين من صفات الله تعالى هما «القدم والوحدانية» يقول :

---

(١) الكسائى : هو على ابن حمزة إمام الكوفيين فى النحو واللغة وكان معلماً لأولاد أمير المؤمنين هارون الرشيد توفى حوالى سنة ١٨٩هـ.

(٢) «وأوجروا سمها» أى أدخلوا الخيوط فى ثقبها . والإيجار فى الأصل : إدخال الوجور (وهو الدواء فى فم المريض أو الطعن بالرمح فى الفم أو الصدر .

(٣) الديوان : جـ١ ص ٢٠٦ .

صَحِبَتْني قبل اصطحابك دهراً ... بدلةٌ في تلون الحرباءِ

نسبوها لطيلسانِ (ابن حربٍ)[1] ... نسبةً لم تكن بذات افتراءِ[2]

وفى خضم هذه السخرية الذاتية ، لم ينس الشاعر أن يسخر من المجتمع المتلون الكذوب ، الذى تخدعه المظاهر ، فلا يقيم وزناً إلا لمثلها . «ولعله هنا كما يقول المازنى : يغمز هذا المجتمع الذى يظلمه ، ولا يتيح له فرصة الكسب الذى يسد حاجته (٣) .

فيقول :

كنتُ فيها إذا طرقتُ أناساً ... أنكرونى كطارقٍ من وباءِ

كسف الدهرُ لونهَا واستعارت ... لونَ وجه الكذوب عند اللقاءِ

ثم يقول فى ثوبه الجديد ، ناقداً ذلك المجتمع الذى يحكم على المظهر دون الجوهر :

يا ردائى جعلتنى عند قومى فوق ... ما أشتهى وفوقَ الرجاءِ

إنَّ قومى تروقُهم جدة الثو ... ب ولا يعشقون غير الرواءِ

قيمة المرء عندهم بين ثوبٍ ... باهرٍ لونُه وبين حذاءِ (٤)

---

(١) طيلسان ابن حرب : مثل يضرب لكل ثوب قديم خلق ، سبب ذلك أن بعض الشعراء كان قد مدح ابن حرب فخلع عليه طيلساناً بالياً ، فقال فى ذلك الطيلسان شعراً كثيراً حتى صيَّر ذلك الطيلسان مثلا لكل ما بلى ورث من الثياب ، فمن ذلك قوله :

يا ابن حرب كسوتنى طيلساناً ... رق من صحبة الزمان وصدّى

طال ترداده الى الرفو حتى ... لو بعثناه وحده لتهدّى

(٢) الديوان : جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٣) د. حامد عبده الهوال : السخرية فى أدب المازنى : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ ص١١٥ .

(٤) الديوان : جـ ١ ص ٢٠٦ .

ورغم ما قيل فى اصطناع حافظ للبؤس ، وشكوى الزمان ، إلا أن المطلع على أشعاره الأولى ، يجد ذلك ملمحاً وسمة بارزة فيها ، ولربما زادت تلك النبرة الحزينة فى مراحل تالية عنده ، تعمد فيها شيئاً من الحذق والتصنع فى هذا الباب

لقد بدأ حافظ حياته متبرماً ساخطاً ، حانقاً على الدهر ، ثائراً عليه ، فمنذ بواكير شبابه الأول نجد ذلك الروح ، الذى لم يختلف كثيراً عما كان عليه فى كهولته وشيخوخته ، فيطالعنا الشاعر بشئ من الشعر يعكس هذا الجانب ، فيقول فى بيتين تحت عنوان : (إلى محمد الشيمى بك المحامى بطنطا) وقد كان يعمل فى مكتبه قبل التحاقه بالمدرسة الحربية:

جراب حظى قد أفرغته طمعاً ... بباب استاذنا (الشيمى) ولا عجباً

فعاد لى وهو مملوءٌ فقلتُ له : ... مما ؟ فقال من الحسرات واحربا [1]

ورغم ركاكة هذه الأشعار ، إلا إنها تمثل مرحلة مهمة من حياة حافظ وشعره .

ومن شعر تلك المرحلة أيضاً ، بيتان قالهما بعد أن عزم على ترك خاله بمدينة طنطا ، وكان قد تعهده بالتربية بعد وفاة والده ، فيقول :

ثَقُلَتْ عليك مؤونتى ... إنـى أراهـا واهيهْ

فافرح فإنـى ذاهبٌ ... متوجه فى داهيهْ [2]

ويعلق الاستاذ / أحمد أمين على هذا الشعر فيقول : «شعر ساذج فى سن الصبا ، ولكنه يكن عاطفة قوية حزينة ، موقف أليم فى بيت خاله يذكره دائماً بيتمه وعدمه ، ويصور له دائماً بؤسه وشقاءه ؛ وهذا يفسر لنا

(١) الديـــوان : جـ٢ ص ١١٢ .

(٢) الديـــوان : ص ٨ .

ما كان فى نفس حافظ من حزن عميق وألم كامن ، على الرغم مما يلوح على سطحها من ضحك وسرور » (١)

ولم يكن غريباً أن تستمر رؤية حافظ للحياة ، وما يعانيه فيها من بؤس وشقاء ، حتى أنه يتمنى لو كان قد وئد فى يوم مولده ، فيقول :

ودِدتُ لو طرحوا بى يوم جئتُهُمُ ... فى مسبح الحوت أو فى مسبح العطبِ
لعل (مانى)[٢] لاقى ماأكابدُه ... فودَّ تعجيلنا من عالم الشجبِ[٣]

غير أن هذه الرؤية المتشائمة ، لم تكد تفارقه قط ، وإنما لازمته دائماً خلال سعيه المتواصل الدءوب ، فيصل الشاعر إلى درجة من اليأس والأسى، يفضل فيها الموت ، إيثاراً للراحة والسكينة ، التى لم يجدها فى الحياة ، فيقول :

سَعَيْتُ إلى أنْ كدتُ أنْتعلُ الدِّما ... وعُدْتُ وما أعقبْتُ إلاّ التَّنَدُّمَا
سَلامٌ على الدُّنيا سَلامَ مُوَدِّعٍ ... رَأى فى ظَلامِ القَبْرِ أنساً ومَغْنَما
أضَرَّتْ به الأولى فهامَ بأخْتِها ... فإنْ ساءَت الأخْرَى فوَيْلاهُ منهمَا
فهُبِّى رياحَ الموتِ نُكْبًا وأطْفِئِ ... سراجَ حَياتى قَبْلَ أنْ يَتَحَطَّما
فما عَصَمَتْنى منْ زمانى فَضائلى ... ولكنْ رأيتُ الموتَ للحُرِّ أعْصَما
فياقلبُ لاتَجْزَعْ إذا عَضَّكَ الأسَى ... فإنَّكَ بَعْدَ اليَوْمِ لن تَتَألَّمَا
ويا عَيْنُ قد آنَ الجُمودُ لمَدْمَعى ... فلا سَيْلَ دَمْعٍ تَسْكُبِين ولا دَمَا[٤]

---

(١) مقدمة الديوان : ص ٩ .

(٢) مانى : هو صاحب مذهب المانوية المشهور ، وكان يرى وجوب تعجيل الفناء للبشر بقطع النسل ، وقد ظهر فى زمن سابور بن أزد شير .

(٣) الديوان : جـ٢ : ص ١١٧ .

(٤) الديوان : جـ٢ : ص ١١٤ .

وهكذا تنال الشكوى - الممتزجة بالسخرية من الحياة - من نفس حافظ، فنرى صورة أخرى من تلك الصور ، وإن كانت تختلط بشئ من التمرد والجحود والإنكار على الوجود برمته فيقول تحت عنوان : «إلى آدم أبى البشر» :

سليلُ الطين كمْ نلنا شقاءً ... وكم خطت أناملنا ضريحا

وكم أزرت بنا الأيامُ حتى ... فدت بالكبش (اسحاقَ) الذبيحا

وباعَتْ (يُوسُفًا) بَيْعَ الموَالى ... وألْقَتْ فى يَدِ القَوْمِ (المسيحَا)

ويا (نُوحًا) جَنَيْتَ على البَرَايَا ... ولم تَمنَحْهُمُ الودُّ الصَّحيحَا

عَلاَمَ حَمَلْتَهُمْ فى الفُلْكِ هَلاَّ ... تَرَكْتَهُمُ فكُنْتَ لَهُمْ مُرِيحَا

أُصابَ رِفاقِىَ آلقِدْحَ آلمُعَلَّى ... وصادَف سَهْمِى القِدْحَ آلمَنِيحا[1]

فلو ساقَ القَضاءُ إلىَّ نَفْعًا ... لقَامَ أخُوهُ مُعْتَرِضًا شَحِيحَا[2]

ومع أن الشاعر يربط بين الشقاء والفناء بهذا الخطاب الساخر (سليل الطين) ، غير أنه يصور مشهداً إنسانياً عاماً ، تمثل فى الشقاء الأبدى الذى لازم الإنسان ، خلال رحلته الحياتية العاتية الأمواج ، التى تلقى به من ضفاف إلى ضفاف ، يعتريها شىء من التيه والحيرة والاضطراب .

وإذا كان الخطاب الحاضر قد استدعى عدداً من الأحداث الدينية .

---

(١) القدح (بكسر القاف وسكون الدال) : واحد القداح ، وهى سهام الميسر . والقدح المعلى ، هو السهم السابع منها ، وهو أفضلها ، لأنه اذا خرج حاز سبعة أنصباء . والمنيح : سهم من سهام الميسر لا نصيب له ولا فرض ، وهو الثالث من القداح الغفل التى ليس لها فرض ولا أنصباء .

(٢) الديوان : ص ١١٢ .

(الطقوسية) بما لها من إجلال وقداسة ، الا إننا نرى شيئاً من الاصطدام والتعالى ، أبان عما يضطرب فى أعماق الشاعر ، وكشف عنها فى جلاء ووضوح ، فأسقط مابها من أقنعة ، حتى رأينا صورة مجردة عارية ، تؤكدها أبياته الأخيرة .

إنها صورة نفسه الحزينة ، وروحه الشجى ، وقلبه المكلوم ، وطالعه الأسود ، الذى لازمه طول حياته .

يؤكد ذلك أحمد محفوظ أحد أصدقائه المقربين فيقول : «إن يتم حافظ وفقد أمه وقسوة خاله : كل هذه الأشياء استقرت فى عقله الباطن وراحت تعاوده ، كلما لمس خيبة أمل فى حياته ، ولو كانت خيبة تافهة . أنا لاأعد بؤسه إلا بؤساً فى الرغبة والطموح . كان فيه خلق الأدباء المتطلعين الى الترف والحياة الناعمة ، التى يزعمون أنها من حقوقهم وحدهم ، لأنهم فقهوا جمال الحياة ونعيمها ، وأنهم فوق الناس فهماً وإدراكاً ، فهم أحق منهم بكل خير فى هذه الدنيا ، ولن أميل عليه كل الميل فى تهجين هذه الشكوى ، التى ملأ بها الدنيا ضجيجاً ، فقد يكون حافظ يكره أن تكون يده السفلى ، وهو يعلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، لكن ماذا أصنع وأنا أعلم أن تلك اليد لم تقبض أناملها عن الأخذ حتى بعد أن أصبح صاحبها يبسطها غرة كل شهر إلى راتب مضمون كافٍ للحياة الكريمة ، يتقاضاه من الدولة.»[1]

ومن ثم دار الاختلاف حول شخصية حافظ ، التى اتسمت بالغموض والتناقض ، مما كان أدعى بأن يختلف فيه الناس ، ما بين قائل باصطناعه البؤس ، وبين مؤكد أنه جزء من طبيعته ، ونحن نميل إلى الرأى الآخر ،

(١) حياة حافظ : ص ١٨٠ ، ١٨١ .

الذى يؤكد البؤس فى نفس الشاعر ، حتى لو كان مصطنعاً له فى بعض الأحيان .

استمع إليه يؤكد هذا الجانب ، كلما لاح له ما يثيره ، ويعكر صفو حياته، متأثراً فى ذلك بفيلسوف المعرة .(١)

جنيت عليك يا نفسى وقبلى   عليك جنىَ أبى فدعى عتابى (٢)

وتلك سمة النفس الثائرة على كل شىء ، وأى شىء ، لأنها تعيش واقعاً لا ترضاه ، ومناخاً لا تتآلف معه ، غير أنها سمة المرهفين من البشر ، الذين يضيقون ذرعاً بما عليه الأخرون ، من خروج وتهاون واستهتار .

---

(١) هو أحمد بن عبد الله التنوخى : (٣٦٣هـ / ٩٧٣م - ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م) فى قوله :
هذا جناه أبى على   وما جنيت على أحد
(٢) الديوان : جـ ٢ ص ١٢١ .
(١) سليم حسن : الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة جـ ٢ ط ثانية مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩٠

الفصل الثانى

حافظ والأصدقاء

أ ـ النكتة.

ب ـ الشعر.

١ - النكتة :

لقد تميز المصريون منذ القدم بعدد من السمات الخاصة ، التى تشكل فى مجموعها شخصيتهم ، وكانت الفكاهة وروح المرح جزءاً أساسياً منها ، فانعكس ذلك على تكوينهم النفسى ، لم يختلف فى ذلك أى من العصور .

يقول المصرى القديم فى إحدى أغانيه ، التى يذم فيها الدنيا : «كن فرحاً ، حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوماً ما بموتك ، فمتع نفسك مادمت حياً ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، ودلك نفسك بالروائح الذكية المقدسة ، وزد كثيراً فى المسرات التى تملكها ، ولا تجعلنَّ قلبك يكتئب» (١)

ومن هنا فقد أضحت الفكاهة سمة من سمات الإنسان المصرى ، وخصيصة من خصائصه البارزة .

كانت الحقبة التى عاشها شاعر النيل حافظ إبراهيم ، من أخصب الحقب التى عاشتها مصر ، على الرغم مما تنوء به من أثقال . فقد شهدت تلك السنوات ذاتها ، تيارات مختلفة من الفكر والفن والأدب ، بل والصراعات السياسية والوطنية والاجتماعية المتعددة ، فخلف ذلك الصراع أثره على الحياة برمتها ، وإن كانت هذه الأحداث بكل تياراتها المتصارعة ، لم تكن تستقر على حال - نقول على الرغم من ذلك كله - فقد كانت فترة غنية، إذ أنتجت لنا تراثاً ضخماً وكبيراً فى مجالات شتى ، كان الأدب

---

(١) سليم حسن : الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة جـ ٢ ط ثانية مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩٠ ص ٢٢٩ .

فيها والشعر بخاصة، بوقاً معبراً عن الأمة ، وضميراً حياً يجسد وجدان الشعب ويشكله .

وإذا كانت تلك الأحداث قد ذهبت وتلاشت فى وجدان التاريخ ، فإن ذلك جميعه فد خلده الأدب ، فأضحى سجلاً أميناً لأحداث ذلك العصر ، وكاتماً لأسراره .

وكان من تلك الزمرة نفر من المصريين ، توحدت أفكارهم ، وتقاربت أرواحهم ، فاجتمعت قلوبهم ، على حب واحد ، وهدف لا يخطئونه ، هو النهوض بمصر وأبنائها .

ورغم تلك الأعباء ، فقد أخذوا يسرون عن أنفسهم ، فى أسمارهم وأوقات فراغهم ، فظهر بذلك نوع من أدب الفكاهة ، أفرزته تلك اللقاءات، وأثمرته هذه المسامرات .

وكانت المقاهى المنبر الرئيسى ، والمكان الذى يجتمع فيه أبناء الشعب فتتلاقح أفكارهم ، وتتبارى ألسنتهم ، وتتمازج أفئدتهم ، بشئ من الملح والدعابات والنوادر .

والحديث عن النكتة عند شاعر النيل ، يسوقنا إلى الحديث عن تلك المقاهى وأثرها فى الحركة الثقافية بعامة ، والفكاهة بخاصة .

فإذا كانت «الصالونات الأدبية » قد مثلت آنذاك جانباً «أرستقراطياً» خاصاً ، فقد كانت هذه المقاهى بمثابة «صالون الشعب» ففيها يجتمع الأضداد ، كما يجتمع الأحبة ، فلا تخلو من حوار ساخن ، أو منازلة هازلة، أو مناقشة مثمرة .

يقول الدكتور شوقى ضيف : «كانت المجالس والمقاهى فى أواخر القرن

الماضى ، وأوائل هذا القرن ، تعد منتديات أدبية ، ولم يكن يخلو مجلس فى القاهرة أو مقهى من مضحك : أديب ، أو شاعر ، من أبناء الشعب ، الذين تجرى الفكاهة فى روحهم» [1]

لقد اجتمع فى تلك الأمكنة هؤلاء ، رغم الأهواء المختلفة ، والمشارب المتعددة ، فكان منهم السياسى ، والأديب ، والشاعر ، والحرفى ، والفنان .

يضيف عبد المنعم شميس : «كانت المقاهى فى القاهرة لها اختصاصات، وقد شاهدت فى حى باب اللوق مقهى للمنجدين كانوا يجلسون إليها ومعهم أدوات التنجيد ، وكان فى حى القلعة مقاهٍ خاصة لكل طائفة من طوائف عمال المعمار ، مثل البنائيين والمبلطين والمبيضين وغيرهم . ولذلك كانت مقاهى حى الحسين والأزهر مخصصة لأهل العلم والأدب والفن ، وقد عرفت منها مقهى الفيشاوى ، ومقهى شعبان ، وكان لهما روادهما فى الصيف والشتاء ، وفى رمضان وغيره من شهور العام» [2]

كانت المقاهى المقر الرئيسى ، والمكان المحبب لتلك الصفوة ، من أصحاب المزاج العالى ، يجتمع عليها هؤلاء النجوم اللامعة ، فى سماوات الفكر والأدب ، فيتجاذبون أطراف الحديث ، الذى يطوف بهم فى كل جانب، حتى تكون النكتة هى الملاذ الأخير ، فيهيمون بها ، ويتسابقون إليها ، وقد ملكت عليهم ألبابهم ، وأبانت عن منابع اللهو والسعادة والسرور فيما بينهم.

كان جلوس المثقفين فى ذلك العصر على المقاهى ظاهرة واضحة ، وسمة بارزة ، سواء كانوا من المبرزين فى مجالات الأدب ، أو السياسة ، أو الفن،

---

(١) الفكاهة فى مصر : س إقرأ دار المعارف ، ١٩٨٨ . ص ١٦٧ .

(٢) قهاوى الأدب والفن : س إقرأ . دار المعارف ١٩٩١ . ص ٤٧ .

تلك الصفوة المختارة ، من أعلام النهضة المصرية فى مستهل هذا القرن، فى مجاليها الفكرى والسياسى ، حتى عدت المقاهى فى مصرنا الحديثة علامة لهذه النهضة ، فأصبحت ذات فضل على الأدب والأدباء ، بل على الثقافة جملة ، بوصفها منارة للعلم والفكر ، ووجهة يتجه إليها هؤلاء الأعلام .

وفى هذا المناخ ازدهر هذا اللون من الفكاهة ، فكان «بار اللواء» من أشهر المقاهى التى يرتادها حافظ مع أصدقائه ، وعلى رأسهم الشيخ عبدالعزيز البشرى ، أظرف ظرفاء العصر ، ثم «كانت مقهى الكتبخانة» المواجهة لمبنى دار الكتب بشارع محمد على، المكتب الرسمى لشاعر النيل حافظ بك إبراهيم ، وكيل دار الكتب ، ومعه تابعه الذى لا يفارقه ، الشاعر الأسمر اليائس المظلوم إمام العبد . كانت سلالم مبنى دار الكتب عالية واقفة صعبة المرتقى ، ولعل المهندس الذى صممها ، أراد أن يجعل الصعود إلى الكتب أصعب من الصعود إلى نجوم السماء ، ولهذا فقد اتخذ حافظ إبراهيم من مقهى «الكتبخانة» مقراً رسمياً له ، وكان لايصعد إلى مكتبه فى دار الكتب إلا قليلاً ، وكانوا يحضرون له الأوراق الرسمية التى يجب التوقيع عليها فى المقهى ، ليمهرها بتوقيعه وهو يدخن الشيشة ، ويشرب القهوة، وقد جلس معه إمام العبد ، الذى اتخذ منه شاعر النيل مجالاً لنكته الساخرة .»[1] بل وبعض قصائده التى تدخل فى باب الأدب الفكاهى .

«ولم يكن حافظ يقضى وقتاً طويلاً فى مقهى «الكتبخانة» ، بل كان ينتقل منها إلى مقاهى ميدان العتبة الخضراء ، وميدان الأوبرا ، والشوارع المحيطة به ، حتى يصل إلى مقهى «بار اللواء» حيث ينتظره صاحبه الشيخ عبد العزيز البشرى ، وكان لهما صاحب ثالث ، نسيه أهل الأدب ، هو

---

(١) قهاوى الأدب : ص ١١١ .

الأديب الموسيقى ، الظريف ، الثرى ، محمد البابلى ، سيد أصحاب النكتة فى عصره .[1]

كانت هذه المقاهى بمثابة الإشعاع الفكرى والثقافى فى تلك البيئة ، فساعدت بذلك على تشكيل الوجدان الجماعى ونمته ، كما ساعدت على ظهور هؤلاء الظرفاء ، من أدباء مصر ومبدعيها فى تلك الآونة ، على الرغم من التباين والاختلاف فيما بينهم .

يقول الدكتور شوقى ضيف : «إن حافظ كان يعيش فى بيئة الأدباء المختلفين ، أمثال إسماعيل صبرى [2] ومحمد المويلحى [3] وحفنى ناصف[4] وعبد العزيز البشرى ، وإمام العبد ، وغيرهم . وكان منهم من كُفل له رزقه وكُفى مؤونته ، ومنهم الشقى البائس مثل حافظ نفسه ، وكانت كثرتهم تختلف إلى المقاهى فى الأحياء الوطنية : فى باب الخلق ، والسيدة زينب ، والعتبة الخضراء . وكان حافظ يختلط بهم ، ويشاركهم أحاديثهم الشعبية ، وما يعلقون به على الحوادث السياسية ، من تصرفات الخديو وبطانته ، وسياسة قصر الدوبارة ، وسياسة «دانلوب» فى التعليم . وفى تضاعيف ذلك يُكثر من التندر والفكاهة ، فبؤسه لم يكسر نفسه ، وقد احتفظ ديوانه بأطراف من هذه الدعابات التى لم تفارقه طوال حياته . [5] فأضحت شاهداً على هذا كله ، وتاريخاً حياً لأحداثه ، وموضوعاً طريفاً فى بابه .

---

(١) السابق : ص ١١٢ .

(٢) هو الشاعر اسماعيل صبرى من رواد مدرسة المحافظين (١٨٥٤ - ١٩٢٣) .

(٣) هو الأديب محمد ابراهيم المويْلحى ، (١٨٥٨ - ١٩٣٠) . الأعلام ٣٠٥/٥ .

(٤) قاض وأديب ، له شعر جيد ، (١٨٥٦ - ١٩١٩) الأعلام ٢٦٥/٢ .

(٥) فصول فى الشعر ونقده : ص ٣٥٥ .

ثم يروى الأستاذ أحمد أمين : «أن حافظ قد انتابه كثير من الشدائد ... ولكن أبت الطبيعة إلا أن تجد لثوران نفسه منفذاً ، ولشقائه مسعداً ، فمنحته القدرة الفائقة على الفكاهة الحلوة ، والنادرة المستملحة ، فضحك من البؤس ، ومن الشقاء ، ومن كل شئ ، وكان له ذوق بارع فى اختراع النكتة من كل مايدور حوله ، فما يسمع حديثاً ، أو يعرض أمامه شئ ، حتى يدرك موضوع الفكاهة منه ، فيصوغ ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق صدورهم ، وقرارات قلوبهم ، فكان فى مجالسه موضع إعجابهم ، ومنبع سرورهم ، فهو زينة المجلس ، وبهجة النادى . [١]

كان حافظ علامة بارزة فى هذا الجيل . أديباً شاملاً ، وشاعراً من الفحول ، وظريفاً من الظرفاء ، فاجتمع له من ذلك كله رصيد من البلاغة ، والتأثير ، والبيان ، والقبول .

إنه «خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة ، حتى ليخيل إليك أنك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله ، وأشرق نرجسه ، وتألق ورده ، فلا يحتويه مجلس إلا رأيته يتنزى تنزياً من ضحك ، ومن طرب ، ومن إعجاب . وهو بذلك شديد الفطنة ، حلو الملاحظة ، لا يكاد يعرض لسمعه أو لبصره شئ إلا وجه عليه رأياً ظريفاً ، يصوغه فى «نكتة» عجيبة قد تستقر على سطوح الأشياء ، وأحياناً تتغلغل إلى الصميم ، حتى تتكشف الأيام منها ، لا عن طرفة متطرف ، ولكن عن رأى حكيم ! »[٢]

إنها شخصية شاعر النيل ، التى يجسدها ، ما حفظته لنا ، ووعته

---

(١) مقدمة الديوان ص ١٦ .

(٢) عبد العزيز البشرى : ذكرى الشاعرين : ص ١٣ .

لغيرنا ، قريحة التاريخ ، مما وصل إلينا من فكاهات وسخريات ، «فحافظ كان يستعين بالدعابة - كنوع من السخرية بالحياة - لتخفيف حدة الشعور بالبؤس والحزن ، فهو يتهكم بالدنيا ، ويصوغ ذلك فى قالب من الفكاهة ، التى تحمل أقسى معانى الألم (١)

ومن ثم تتبدى لنا جوانب من الحيرة والتناقض أمام تلك الشخصية ، التى جمعت بين البؤس والدعابة ، والشكوى والإسراف ، والمرح والحزن ، والثورة والخنوع .

يقول العقاد فى رثاء حافظ إبراهيم ، وذلك فى قصيدة أنشدها على قبره :

أبكاءٌ وحـــافظٌ فى مكانٍ   تلك إحـدى طوارق الحـدثانِ
كنت أنساً فكيف أمسيتَ ياحا   فظُ تُدمى لذكـرك العـينانِ (٢)

وإذا كان العقاد يرى صورة لهذا الجانب المضىء بما به من سخريات ونوادر ، يلقيها حافظ على آذان سامعيه ، فإن شوقى يرى وجهاً آخر ، وإن كان وجهاً حقيقياً ، تجاوب مع قول حافظ نفسه ، وتطابق معه ، ذلك الذى يقول فيه :

إنِّى مللتُ وقـوفى كل آونةٍ   أبكى وأنظِمُ أحـزاناً بأحـزانِ
إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى   وجدتَ شعَر المراثى نصفَ ديوانى(٣)

فيقول شوقى راثياً :

قـد كنتُ أوثرَ أن تقـول رثائي   يا منصفَ الموتى من الأحـياءِ (٤)

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل : ص ١٨٣ .

(٢) الديوان جـ٥ : منشورات المكتبة العصرية - صيدا - لبنان - (د . ت) . ص ٤٦ .

(٣) الديوان جـ٢ : ص ١٤٠ .

(٤) الشوقيات : جـ٣ دار الكتاب العربى - بيروت (د . ت) ص ٢٢ .

فبينما يشير العقاد إلى حافظ الضاحك الساخر ، يشير شوقى إلى حافظ الباكى الحزين ، إنهما شخصيتان متنافرتان ، تكاد تعلو كل منهما على الأخرى وتسمو عليها ، «إحداهما تنطوى على المرح والدعابة حين يتاح لصاحبها أن يلتقى بالناس ، والثانية منطوية على البؤس واليأس حين يخلو الشاعر إلى نفسه . ويستدلون على ذلك بالمداعبات الشعرية التى كان يرسلها إلى أصدقائه من السودان ، وهى مداعبات تنم عن المرح وخلو البال، وتخرج أحياناً عن حد التوقر ، مما يدل على أن صاحبها هانئ بحياته فى الظاهر على الأقل ، فى حين أنه كان يعانى إبان ذلك ألواناً شتى من الضيق والبؤس . ومهما يكن من شئ فقد لون البؤس نفس الشاعر بألوان من الأخلاق لا تكاد تفارقه ، فكان يُعجب بالبساطة والسذاجة ، ويضيق بالنظام والرسميات ، ويحتفى بألوان العادات، ولا يتطلع إلى تقليد «الأرستقراطيين» . بل كان شعبياً فى طبعه، وفى حديثه ، وفى مأكله ، وفى مشربه ، وفى نظرته إلى الدنيا . كما كان صافى السريرة نقيها ، حاضر البديهة لماعها . »[1]

وهكذا جادت تلك النفس بألوان زاهية النقوش ، بالدعابات المؤثرة ، والنكات الساخرة ، فيمن يرسلها إليه حافظ ، فتكون مادة للمسامرة، وزاداً للجلسة الحاضرة ، فيقبلون على قائلها فى سرور ويتلقونها فى ابتهاج وحبور .

على أن هذه النكت ، وتلك الدعابات ، عندما تصدر من أديب مثل حافظ إبراهيم ، فإنما هى بمثابة نقد لاذع ، يوجه إلى من يستحقونه وحدهم ،

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل : ص ١٧٨ .

وإن أخذ أشكالاً مختلفة ، سواء من حيث الشكل ، أو المضمون ، أو من حيث الأشخاص الذين يوجه إليهم . «فالضحك - على هذا - مقارنة سريعة مفاجئة ، بين حالة تراها وحالة تتخيلها : حالة كائنة وأخرى واجبة ، حالة صحيحة ثابتة وحالة كاذبة مدعاة : مقارنة بين الظاهر والباطن ، وبين الحاصل والواجب ،بين المشاهد والمقدر ، ولا يقوى على هذه المقارنة ، فى سرعة وفطنة ، غير الذهن المطبوع على تمثل الأشياء ، فى صورها الحقيقية المثلى ، ووجوهها الصحيحة الواجبة ، ومن هنا يغلب أن يكون السخر باعثاً قوياً على فعل الواجب ، ألا ترى أن الناس يقولون لمن ينصحونه : افعل هذا لئلا يضحك الناس منك !فهم يدركون العلاقة بين الضحك والواجب ، ويشعرون بالقرابة بين ملكة السخر والحاسة الخلقية ، ويعلمون أن البصير بواجباته ، بصير كذلك بمواضع التقصير وأسباب الزراية والسخرية . ولكنهم يدركون ذلك على صورة مبهمة ملتبسة ، فيستغربون لأول وهلة أن يقال لهم: إن الطبع الساخر ، هو الطبع العارف بواجبه ، وإن الوقار والضحك قد يأتيان من عنصر واحد» [1] . وذلك ما يتجلى بوضوح ، فى شخصية حافظ فى الحالين .

وفى هذا الباب نستعرض بعضاً مما وصلنا من نكات حافظ إبراهيم ونوادره :

كان الزعيم المغفور له سعد زغلول [2] على موعد مع المرحوم أمين بك الرافعى [3]، فذهب إليه أمين بك متأخراً عن الميعاد المحدد ، فسأله سعد باشا عن السبب ، فأخبره بأنه شعر (بمغص) فشرب فى الصباح شربة من

---

(١) مطالعات فى الكتب والحياة : ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) زعيم الأمة المصرية (١٨٥٧ - ١٩٢٧) انظر : الأعلام ٨٣/٣ .

(٣) كاتب سياسى مصرى (١٨٨٦ - ١٩٢٧) انظر : الأعلام ١٧/٢ .

الملح الإنجليزى ، ثم قال بأن الشربة لم تتحرك فى بطنه ، وكان حافظ إبراهيم جالساً ، فرد على الفور «هم الإنجليز يا أمين بك يدخلوا حتة ويطلعوا منها ؟ ! » [1]

وبهذا جمع حافظ بين النكتة والتهكم فى آن واحد ، فإن كانت النكتة هنا مادة للدعابة والضحك ، إلا أنها أكدت حقيقة واقعية ، ساقها حافظ ببديهته الحاضرة ، كى تصف الإنجليز ، وتتهكم عليهم ، ثم تهزأ من وجودهم ، وقد جاءت فى تلقائية مباشرة ، انبثقت من نفس شاعر النيل ، حتى صارت مثلاً ، تتلقفه العامة وتردده .

وكان الدكتور محجوب ثابت [2] قد رأى حلماً فقصه على سعد زغلول ، فأخبره بأن حافظ هو الذى يمكنه أن يفسره له ، وابتدأ يقصه على حافظ ، فقال : رأيتنى راكباً بغلة عليها سرج موشى بالذهب ، سائرة بى فى حقول خضراء ، بينما كان كثير من حمير يتبعنى ، فقال له حافظ (البغلة دى كرسيك فى مجلس النواب !فقال محجوب : استبشرنا ياولدى ، والحمير اللى كانت ورايه ؟ فقال حافظ دول اللى راح ينتخبوك !!!. » [3]

واتفق ذات يوم أن احتجز سعد بعض رجاله للغداء على مائدته وكان حافظ من زواره ، فدعاه كذلك ، وكان بين الزوار بعض من يمت بواشجة الأرحام إلى سعد ، ولكنه متهم بميله إلى السراى ، وكان سعد متجهما على الرغم من تحامله وتجمله ، لأنه كان بين أمرين كلاهما مر شديد عليه ، وهما

---

(١) حسين المهدى الغنام : حافظ إبراهيم دراسة وتحليل ونقد - المطبعة الإسلامية بالاسكندرية ١٩٣٥ . ص ١٠٧ .

(٢) طبيب مصرى وكاتب من خطباء ثورة ١٩١٩ ، (١٨٨٤ - ١٩٤٥) انظر الأعلام ٢٨٣/٥ .

(٣) حسين المهدى : حافظ ابراهيم : ص ١٠٨ .

المصانعة أو نسبة الغفلة إليه ، ولم يغب عن حافظ سر ذلك ، فما هو إلا أن جاءت الحلوى حتى توجه بالخطاب إلى الضيف الثقيل الذى يواجهه ، وقال فى لهجة بريئة يسائله "ما رأيك فى هذه الحلوى ، قل الحق أليست أطيب مساغا وأصدق حلاوة من عيش السراى" فارتبك الرجل وغمغم مؤمنا ، واشترك فى التأمين الحاضرون وتشاغل بالضحك الفاهمون ، فزال عن سعد تجهمه وسرى عنه . [1]

ويروى أنه رأى رجلاً بطيناً عظيم الكرش ، فقال له مداعباً : ماأراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل ، فأجابه : نعم ، فقال حافظ : ظاهر لقد حملت عنها حملها » ، «ومر يوماً على رجل يبيع مراوح ، فسأله عن ثمنها ، فقدم له مروحة ، وقال له : هذه بقرش واحد ، ثم قدم له أخرى مثلها وقال له : وتلك بقرشين ، ونظر حافظ فى المروحتين وقلبهما ، ولم يجد فرقاً بينهما ، فقال له : هذه تأتى بهواء بحرى والأخرى تأتى بهواء قبلى ! » «ودعا جماعة من أصحابه إلى طعام ، وجاءوا معهم بصديق لهم ،لم يكن يعرفه ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل ، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت من المدعوين ، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو ، ثم قال له : ياأخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى ! » و «دُعى مع جماعة على طعام ، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظ ، فقال للمضيف : ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة ، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى . » [2]

وينقل لنا صالح جودت بعضاً من المواقف الفكاهية الطريفة بين حافظ

---

(١) عبد الرحمن صدقى : حافظ ابراهيم (مهرجان حافظ ابراهيم بالاسكندرية ١٩٥٧) المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧ ص ١٦٥ .

(٢) الفكاهة فى مصر : ص ١٨٦ .

ومطران [1] فيقول : كان كل من حافظ ومطران يباهى صاحبه بأنه أجمل منه، مع قلة حظهما معاً من الجمال ، وقد اختلفا فى ذلك يوماً ، فاتفقا على أن يوقع كل منهما عريضة من أعيان القاهرة ، تشهد بأنه أجمل من صاحبه .وذهب مطران إلى السيد عبد الحميد البنّان ليوقع له عريضته ، فرفض ، فما زال يلح به حتى أقر له بما يريد ، وكتب له فى النهاية «المقر بما فيه رغم أنفه» وهذه إشارة إلى أنف مطران ، وهى كما يعلم الناس شوهاء. »[2]

وكان إمام العبد صديقاً لحافظ ، وواحداً ممن اتخذهم مادة للتندر والسخرية ، وله معه مفاكهات كثيرة ، وملح وفيرة ، تؤكد هذه العلاقة الحميمة ، بين هذين الصديقين .

فكان مرة يملى شيئاً ، وحدث أن سقطت نقطة من الحبر على الورق ، فقال حافظ له : (إلحق يا إمام نشف عرقك) ومن المعروف أن إماماً كان أسود الوجه . » [3] «وسمع حافظ أن إمام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً ، فلما التقى إمام بحافظ أسرَّ إليه أنه فى حاجة ملحة إلى مبلغ من المال ذكره له ، فقال حافظ على الفور : «والله يامولاى كما خلقتنى».[4] «ولبس إمام يوماً رباطاً للرقبة أسود ، فلما رآه حافظ قال له: زرر القميص. » [5]

---

(١) هو الشاعر خليل مطران (١٨٧١ - ١٩٤٩) الأعلام ٢/ ٣٢٠ .

(٢) بلابل من الشرق . س إقرأ - دار المعارف ١٩٨٤ ص ١٧٥ .

(٣) الفكاهة فى مصر : ص ١٨٦ .

(٤) حافظ إبراهيم شاعر النيل : ص ١٨١ .

(٥) الفكاهة فى مصر : ص ١٨٤ .

ويتندر به وكان يسكن فى بيت صغير ضيق «بأن غفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى يا إمام رجليك طالعة من الشباك يا أخى مش ضرورى تنام ممدد» وفى أحد الأيام نزلا إلى البحر معاً ، وعندما خرجا نظر إلى إمام وكان شديد السواد ، وقال «أنت الآن سودانى مملح» . ورأى سيدة جميلة فالتفت إلى إمام وأخذ يقبله ، فأنزعج إمام وسأله ، ما هذا يا حافظ ؟ فقال : أقبل الأرض بين يديها» [١]

وهكذا تتبدى لنا جوانب ثرية من الفكاهة ، عند شاعر النيل ، بعد أن جسدت صفة الظرف وخفة الروح ، التى اتصف بها بين أقرانه ومحبيه ، وقد انعكس أثرها فى نفوس الآخرين ، غير أنها حققت غرضها الأساسى ، من التشويق ، والارتياح ، والمشاركة الوجدانية بين الجميع .

يقول الدكتور زكريا إبراهيم : «ومهما يكن من شيء ، فإن الملاحظ فى كل حالات الفكاهة أن عملية «تفريغ الطاقة» تتم دائماً تحت إشراف «الأنا» بعكس ما يحدث فى حالات الأعراض العصابية والأمراض النفسية ، التى لا تنطوى على أى تناغم ذاتى.Ego Syntonic ومن هنا فقد أجمع كثير من الباحثين على أن الفكاهة هى خير أسلوب صحى سوى فى تفريغ الطاقة، بينما ذهب آخرون إلى أن النكتة هى وسيلة فعالة تسمح «للأنا» Ego بأن يتخلص من تهديد الـ «هو» Id والـ «أنا الأعلى» Super-ego عن طريق تغيير نوع الرضا أو الإشباع الذى يسمح به الـ «هو» ، أخيراً يقرر بعض الباحثين أن الفكاهة قد تسمح لنا بتحقيق ضرب من «الانتصار» أو «السيطرة» على ما كان من قبل مبعث خوف أو رهبة فى نفوسنا » [٢]

---

(١) السخرية فى أدب المازنى : ص ١١٥ .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك : ص ١٨٦ - ١٨٧ .

والمواقف مع شاعر النيل كثيرة ، فهى تشكل مراحل ممتدة ، هى عمره كله ، فشغلت بذلك ركناً أساسياً من حياته ، حتى صارت منهجاً وأسلوب حياة ، يقبل عليها حافظ بشغف ولهفة ، ولم لا وقد حققت له شيئاً من التسامى والتجاوز ؛ تسام على واقعه بما فيه ، وتجاوز عما يدور حوله من مشكلات ، وإن جعل مكانها الشعر ، عطوفاً على الأصدقاء ، الذين يقضى معهم شطراً من الوقت ، هانئاً سعيداً ، وقد تخلص من أعباء الواقع ، «فلو أننا أمعنا النظر فى الموقف الفكاهى بصفة عامة ، لتبين لنا بوضوح أن الوظيفة الأولى التى يقوم بها ، إنما هى تخفيف أعباء الواقع عن كواهلنا ، وتخليصنا - إلى حين - من بعض تبعات الحياة اليومية الجدية.» (1)

إن الضحك شئ محبب للإنسان ، لأنه يعود به إلى مراحل الطفولة البريئة «فلما كان اللهو واللاواقعية هما من أخص خصائص العقلية الصغيرة غير الناضجة - أعنى عقلية الطفل الذى لم يكتمل بعض نضجه النفسى والعقلى - فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن فى المواقف الفكاهية - على اختلاف أنواعها - شيئاً من النكوص أو الارتداد نحو مرحلة سابقة من مراحل النمو ، وكأن البالغين يريدون عن طريق الضحك أن يعودوا إلى طفولتهم المبكرة ، حتى تسقط عنهم تبعات الحياة الجدية ، وترتفع عنهم مشاغل المعيشة العادية » (2) وتلك غاية مابعدها غاية .

ومن المواقف التى تتسم بالحيوية والمرح ، ما يرويه الأستاذ أحمد محفوظ فيقول : «لما نزلت دار الكتب حديثاً التحقت بالقسم الأدبى فيها ، وكان هذا القسم يتولى يومئذ طبع كتاب أساس البلاغة للزمخشرى ، وهو

---

(1) السابق : ص ١٢٧ .

(2)السابق والصفحة .

كتاب فى اللغة ، وكان يعمل فى هذا القسم : الشيخ سيد المرصفى[1] أستاذ الأدب العربى فى الأزهر ، وهو أيضاً أول أستاذ للدكتور/ طه حسين فى الأدب ، وكان معنا الأستاذ أحمد نسيم الشاعر ، والأستاذ محمود زناتى الأديب المؤلف ، فجاءنا يوماً مدير الدار ومعه ملزمة من المطبعة مهيأة للطبع الأخير، ومعه حافظ ، وكان المدير لا يحسن شيئاً إلا الخط ، فلو تقدم إليه نابليون وإسماعيل سرى المهندس والدكتور حسين هيكل وغيرهم من الأفذاذ طالبين الإلتحاق بأعمال الفراشين والسعاة لرفض طلبهم لقبح خطوطهم ، جاء سعادته وجمعنا حوله ، وأخذ يقرأ علينا الملزمة المشكولة كلها شكلاً كاملاً، إلا الأسماء المعروفة التى لا يخطئ فى قراءتها طفل فى كتّاب ، وكان من سوء حظه ، بل قل من سوء حظى أنا ، أن أول الملزمة كان شعراً . وأن قائله هو الفرزدق الشاعر [2]، وكان الاسم غير مشكول بالطبع ، فقال وهو يقرأ علينا ، ويجلس منا مجلس الأستاذ من تلاميذه : الفرزدق ، وكسر سعادته الفاء ، فلم يستطع غرورى وقلة خبرتى أن يسكتا عن هذا الخطأ الذى لا يخطئ فيه أحد ، فرددت قائلاً : الفرزدق بفتح الفاء ، فانبرى شيخ من الذين قال فى شبيهه أبو حيان التوحيدى [3]: لقد شاخ فى الخدائع وتحنك ، وابتدرنى قائلاً : إخرس ده سعادة البيك بيمتحنا . فلم يسكت حافظ الساخر، بل التفت إلى الشيخ رحمه الله وقال : بس يا أستاذ السؤال ده صعب شوية .»[4]

---

(١) عالم بالأدب واللغة ، من كبار جماعة العلماء بالأزهر ، توفى سنة ١٩٣١ ، الأعلام ١٤٧/٣ .

(٢) هو (همام بن غالب التميمى الدرامى) شاعر من أهل البصرة ، توفى سنة ٧٢٧م ، الأعلام ٩٣/٨ .

(٣) هو على بن محمد بن العباس ، فيلسوف متصوف معتزلى ، توفى (٤١٤ هـ /١٠٢٣م) الأعلام ٣٢٦/٤ .

(٤) حياة حافظ إبراهيم : ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

ويروى أنه تردد عليه واحد من أدعياء الشعر ، وظل ينشده من الأشعار ماجعل حافظ يصل إلى درجة من الاشمئزاز والنفور ، ولكنه كان فى بيته ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً ما .

ثم تكرر هذا المشهد ، فلم يلبث صاحبنا إلا أياماً قلائل حتى عاود زيارته ، حاسباً أنه سيرحب به كعادته ، ولكن الخادم لم يكد يعلن لحافظ اسمه حتى صاح فيه «قوله دامات» [1]

ويستطرد أحمد محفوظ فى عرضه لمواقف أخرى عاشها وعاصرها بل وشارك فيها مع شاعر النيل فيقول : «كان حافظ يكره القبح ويتشاءم منه ، فهو فى ذلك كابن الرومى [2] الشاعر ، الذى كان يرقب جاره الأحدب من خصاص الباب ، فكان إذا أبصره لم يبرح داره ، وإن أتى عليه وعلى ذويه الجوع .

كان يتندر على قباح الوجوه ، ويسخر منهم ويناقشهم فى المهور التى دفعها آباؤهم لأمهاتهم ويقول : «لو زاد آباؤكم مهور أمهاتكم لجئتم أحسن خلقة» وكان يختص صديقاً غير وسيم يعمل معنا بنكاته اللاذعة ويقول: «أظن لما اتولدت ، أمك اتبرقعت من وشك ، هو انت ياجدع رضعتك قردة ، أظن مراتك بتاخد منك كل يوم فلوس بدل وش» [3]

ثم يقـول عن نفـسـه : كنت أحب إبراهيم باشا رأفت ، وآنس إلى شيخوخته المرحة ، التى بلغت الثمانين ، فقد كان الرجل ظريفاً طروباً ، كأنه

---

(١) السابق : ص ١٢٧ .

(٢) هو على بن العباس بن جريج أو جورجيوس الرومى ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، توفى ٨٩٦م . الأعلام ٢٩٧/٤ .

(٣) حياة حافظ : ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

شاب فى الثلاثين ، وكان يجلس معنا فى مقهى كسّاب ، وله صديق يضارعه ظرفاً وطرباً ، فكان إذا أقبل عليه ، أنشد فى وجهه هذا المصراع من الشعر :

يموت الصالحون وأنت حى

فكان يعجبنى هذا المصراع ولا أدرى لماذا ، فليس فيه من البلاغة ولا من الخيال السامى ما يلفت الذوق ، ولكنى كنت أطرب لسماعه ، ولعل لشخصية إبراهيم رأفت حافزاً لذلك فأحببت أن أتعرف على المصراع الثانى ليكتمل البيت ، فلم أجد غير حافظ وهو مستودع ضخم للمحفوظ من الشعر العربى ، فلم أكد أنشده هذا المصراع طالباً الشطر الآخر منه ، حتى بادرنى قائلاً : ما هو معروف ، ثم أنشد :

يموت الصالحونَ وأنت حيٌّ　　　حياتُك يا ابنَ محفوظٍ حرامُ

فشكرته على واسع علمه ، وحمدت الله على أنه لم يزدنى بيتاً آخر.[1]

ويعلق حسن كامل الصيرفى على فكاهات حافظ فيقول : ومن يستمع إلى فكاهات حافظ ونوادره ، يجد فيها من الحكمة ما كان جديراً بأن يزخر بها شعره ، ولكنها كانت تجد المتنفس لها فى تلك النوادر ، فى حين تجد الباب موصداً أمامها فى شعره إلا فى النادر.»[2]

وسواء أكان الصيرفى يقصد شعر الفكاهة ، أم شعر حافظ بوجه عام ، فلقد ذخر ديوان الشاعر بألوان شتى من الحكمة ، شكلت فيما بينها ملمحاً مهماً من شعره ، يسوقها فى عبارة آسرة ، أو مثلاً بليغاً ، تتغلغل من خلاله إلى شغاف القلوب ، وتتسامى به مع الأرواح .

---

(١) السابق نفسه والصفحة .

(٢) حافظ وشوقى - مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٩ ص ١٠ .

لقد هامت نفس الشاعر المفردة ، ذات الطبيعة الساخرة ، بالألفاظ والكلمات ، يرسلها على سجيتها ، لا يتكلف عناءً ما ، وإنما يتركها لما يفرضه الموقف ، وما تهيئه الظروف ، وهذا مكانه النكتة وليس مكانه الشعر.

فحافظ إبراهيم «حلقة متوسطة بين من سبقوه ومن جاءوا بعده ، فى جميع درجات التطور والانتقال .

فهو أولاً : وسط بين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى ومابعدها و وبين الشاعر كما يفهمونه فى القرن العشرين . فالشاعر كما يفهمونه فى القرون الوسطى ومابعدها ، نديم يلقى جميع سامعيه ، ويعاشرهم فى المجلس ، ويطيب خواطرهم بالملح والأحاديث ، فكانت صفات النديم لازمة له أشد اللزوم . والشاعر كما يفهمونه فى القرن العشرين ، رجل يخاطب قراءه من وراء المطبعة ، فلا تلزمه صفة من صفات النديم.»[1]

ومن ثم كان للمجالس واللقاءات ، التى جمعت حافظ ، دافعاً على ازدهار هذا اللون فى أدبه ، حتى عرف به ، وأصبح سمة من سماته ، ولهذا غدت مسامراته ولقاءاته هذه ، أشبه بما كانت عليه القرون التى خلت ، فأعادت بذلك مجالس القدماء إلى عصره .

ومن هنا يروى الدكتور محمد حسين هيكل عن حافظ فيقول : «أنت أمام رجل يسخر من تكاليف الحياة ، ويرى أن الناس قد تغالوا فى تقديرها إلى حد يظنه هو جنوناً ، أما ما تواضعوا عليه من التكاليف والتقاليد ، فلم يكتف بتحرير نفسه من جانبٍ كبير منها ؛ بل اتخذه موضع سخريته وهزئه . وإنك ليأخذك العجب إذا جمعك به مجلس من تلك المجالس التى

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى : مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٣٧ . ص١٤ .

شاع عنها فى الناس مواقف الجد ، واشتهر رجالها بالتوقر ، إذ ترى حافظاً لايترد فى أن يرسل نكتة حضرته تصيب من تصيب ، أيًا كان خطره ، وهو بهذا فى حدود الذوق السليم بدليل أن الجميع من كانت له النكتة أو عليه سواء فى التفكه بها والعجب منها ، كذلك هو لايتردد فى أن يدعو هذا الباشا أو ذاك الوزير باسمه خلواً من الألقاب ، وليس هذا مما يتقبله الناس - وخاصة أصحاب الألقاب - ولكنه إذا جاء من حافظ صار سائغاً مقبولاً .
لماذا ؟ من رأى حافظاً حين يسبح بأفكاره ، ويتغنى ببيت البارودى :

حبوتُك ألقابَ العُلا فادعنى باسمى   فما تخفضُ الألقابُ حراً ولاتسمى

من رآه يتغنى بهذا البيت أحس أن كل كلمة بل كل حرف يخرج من صميم قلبه . (١)

لقد عرف عصره كثيراً من الظرفاء ، ممن يتمتعون بهذا اللون ، وممن برعوا فيه ، ولكنهم لم يصلوا إلى مكانته فى قلوب الآخرين . وربما اعتلى حافظ تلك المكانة بوصفه شاعراً ، غير أن هذا يرجع إلى شخصيته المركبة تركيباً خاصاً ، حتى جمعت بين الأضداد .

ومن أظرف نوادره ، أن صديقاً له لقيه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس ، متربد الوجه ، فسأله مابه ، فقال له : إن المصران الأعور عندى ملتهب فقال له صاحبه : وبماذا تشعر ؟ فقال أشعر بوجع شديد هاهنا وأشار إلى جنبه الأيسر ، فقال له : إن المصران الأعور إنما يكون في الجانب الأيمن لا الأيسر ! فأجابه حافظ من فوره : يمكن أكون أنا ياسيدى أعور شمال .!!!(٢)

---

(١) عبد العزيز البشرى : ذكرى الشاعرين شاعر النيل وأمير الشعراء ص ٥٠ ، ٥١ .
(٢) السابق : ص ١٥ .

وأبصره أحد أصحاب الصحف الأسبوعية جالساً فى المقهى ، فأسرع إليه ، وقال له : «إنما كنت أتفقدك لأقترض منك جنيها أنا فى أشد الحاجة إليه ، فضحك حافظ وقال : عمرك أطول من عمرى .»[1]

ويسأله الشاعر محمد الهراوى [2] عن ابنه ، وكان ضخم الجثة ، فيرد عليه حافظ : « أنا (شفته) فيقول الهراوى (فين) فيقول له : أهو هناك واقفة جانبه الكتب خانة .» [3] يعنى بذلك دار الكتب .

ويضيف أحمد محفوظ : «وحضرت مرة جدالاً بين حافظ وعبد العزيز البشرى : فى أيهما أجمل من الآخر ، فلما احتدم الجدال قال حافظ للبشرى: «دا أنت تبص فى المراية وترمى عضمة» فقال له البشرى : «دا وش ينغسل ودا وش ينكنس» فقال حافظ : «فى ذمتك أمك باستك كام بوسه» فقال البشرى: «دى دايتك كانت من بتوع يارفاعى مدد .» [4] بالإضافة إلى النكات و «القفشات» التى كان يبدعها حافظ على الفطرة ، وتبعاً للمواقف والأحوال ، نجد هناك بعضاً منها يدخل فى باب النادرة ، سواء حدثت لحافظ نفسه ، أو مع الآخرين .

ويقص علينا الدكتور زكى مبارك بعضاً من طرائف حافظ فيقول: «وكان حافظ مع هذا يخلق النكتة خلقاً حين يعز عليه النقل : من ذلك ماحدثنا به أن أحد رؤساء الأقلام كان له حاجب ، واتفق أن الحاجب أخبر مخدومه أن برقية جاءت بوفاة أبيه ، وأنه لذلك فى حاجة إلى إجازة ، فمنحه رئيسه الإجازة ، وبعد ذلك عاد الحاجب فطلب إجازة لأن برقية جاءته

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل : ص ١٨١ .

(٢) شاعر مصرى له ديوان فى شعر الأطفال (١٨٨٥ - ١٩٣٩)

(٣) حياة حافظ لأحمد محفوظ : ص ١٤٠ .

(٤) السابق : ص ١٤١ .

بوفاة أبيه ، فمنحه رئيسه الإجازة ، وبعد عامين التمس الحاجب إجازة لأن برقية جاءته بوفاة أبيه ، فمنحه رئيسه الإجازة ، وقد فهم الحاجب من هذا أن رئيسه ينسى ما فات ، وبعد مدة طلب إجازة لأن أمه ماتت ، فمنحه رئيسه الإجازة ، وبعد عامين طلب إجازة لأن برقية جاءت بوفاة أمه ، فصرخ الرئيس فى وجهه وقال: قد أفهم أن يكون لك أربعون أباً ، ولكن لن يكون لك إلا أم واحدة !!! فأسقط فى يد الحاجب وفهم أن رئيسه يعد عليه أسباب الإجازات [١]

ويروى عبد الرحمن صدقى عن ذكرياته مع حافظ فيقول : قدمت أنا وصديق لى على شاعر النيل ، فحياه الصديق ثم قدمنى ، ولكن حافظ لم يمهله فقال لقد ذكرتك الليلة البارحة ، وهذا أنت . فتهلل الصديق معقباً على الفور كالعادة «خير إن شاء الله » قال حافظ « كنت أقرأ الليلة البارحة فى رسالة الغفران ما جاء فى صفة جهنم فذكرتك » .

« وماذا يجعلك تذكرنى فى هذا الوضع بالذات ؟ « فظهر الجد على وجه حافظ وفى نبرة صوته : « هو الحق أقوله لك ، لقد أعيانى تصور زبانية الجحيم كالعماليق ، فى أيديهم مقامع من الحديد يتأهبون هذه الأهبة المهولة ، ويتكفون هذا الوقود العظيم ، لتعذيب من كان مثلك فى صغر الحجم وقصر القامة وخفة الوزن » .

- « ألا تكف عن هزلك يا حافظ بك ؟ ألا تكف عن هزلك » ؟

- « ما أنا بهازل فى هذه المرة يا بنى ، أنا مشفق عليك ، ولو كان أمرك يومئذ يوكل إلى ، لكان حسبك فى جهنم موقد من مواقد الكحول الصغيرة ، «اسبرتو » تتقلب من ذبالته على نار لينة يسيرة وقبل أن يراجعه

(١) ذكرى الشاعرين : ص ٧١ ، ٧٢ .

زميلي بكلمة أشار حافظ إلى وسأله : « أترى زميلك من أصدقاء العقاد ؟ » .

وما كاد يسمع الرد بالإيجاب ، حتى التفت إلى قائلاً « ما أظنك إلا كنت أكثر شباباً قبل أن تعرفه ، إن العقاد يعقد على الناس الحياة ، إنه لا يدع شيئاً على حاله في الشعر وفي مقاييس النقد وفي منازع الفكر وفي سائر الأمور . نصيحتي إليك أن تنجو بحياتك منه » . [1]

وفي ضوء ذلك تتكشف سمات حافظ ، بوصفه نديماً من ندماء عصره ، تبدت خلال هذا العرض لبعض من إبداعه الفكاهي ، بعدما اكتملت صورته ، وتجلت موهبته وعبقريته ، غير أنها كشفت القناع عن نفس صاحبها .

وكان حافظ إذا مال به الحال ، وأعوزه سوء المنال ، إلى طلب ضرورات الحياة، حجب نفسه في منزله ، لم يغادره ، حتى يجعل الله من أمره مخرجا .وحدث أن « احتجب حافظ بضعة أيام عن أصدقائه ، فتساءلوا عن سبب احتجابه فلم يهتدوا ، وتصادف أن قابله الإمام وسأله فقال له : إن السبب في احتجابي هو المادة ، فليس عندي ما يكفي لمصاريف الخروج من بيتي ! ! فأعطاه ورقة بعشرة جنيهات ، فوعده حافظ بزيارتهم بعد قليل ، ولما ذهب الإمام إلى المكان الذي اعتادوا أن يجتمعوا به ، قال لأصدقائه : إن حافظاً سيحضر بعد قليل ، وسألوه عن سبب غيبته ، فأخبرهم عما قاله حافظ ، وعن العشرة جنيهات، فقال أحدهم : أقسم لك أنه لن يحضر ، فقال لماذا ؟ فأجاب : قد يعطيها لأول من يسأله في الطريق ، وتراهنوا على أن يذهب أحدهم متنكراً إلى بيت حافظ ، يساله شيئاً يستعين به ، ليروا النتيجة ،ولما

---

(١) حافظ ابراهيم : (مهرجان حافظ ابراهيم بالاسكندرية ١٩٥٧) ص ١٥٤ .

ذهب أحدهم كما اتفقوا ، كتب ورقة يسأل بها حافظاً ، ويخبره أنه أديب معوز لا شيء ينفقه على أبنائه ، ثم أرسلها إليه مع الخادم، فبحث حافظ عما معه ، فلم يجد غير الورقة ، فدفعها إليه مع الخادم دون أن يراه . وذهب ذلك الأديب إلى أصدقائه وأعطى الورقة للإمام ، فأرسلوا فى طلب حافظ ، ولما ذهب أخبروه بما تراهنوا عليه ، ورد الإمام له المبلغ.(١)

وإذا كان هذا يمثل موقفاً على نحو ما ، إلا أنه يكشف عن الجوانب الإنسانية التى اتسم بها حافظ .

كان لحافظ إبراهيم آيات من الظرف والعجب ، حتى مع نفسه « فكان من أعاجيبه : إذا حلت أجازته السنوية - وكان دائماً فى أجازة - هرع إلى المقطم ، فينشر فى أخباره ، أن شاعر النيل ، قام بأجازة شهرين للترويح من عناء العمل ، وهو لم يعمل قط ، ولم يتعنَّى قط، ولم يكن موظفاً له التزامات الموظف قط .(٢)

وكتب الدكتور هيكل مقالاً عنه وعن شوقى بعنوان : شوقى وحافظ ، وبلغه أن شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، وكان يرى نفسه فوقه فى الشعر ، فقال : لماذا يغضب ؟ أما سمع الناس يقولون : زفتى وميت غمر ، فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ وهم أيضاً يقولون : سميط وجبنة ، وخيار وفاقوس ، وعسل وبصل . وكان لا يلبث أن يعقب على ذلك بقوله ضاحكاً : أما من يكون العسل ، ومن يكون البصل ، فهذه مسألة أخرى . (٣)

---

(١) حياة مع حافظ إبراهيم : ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) حياة حافظ : لأحمد محفوظ ، ص١٦١ .

(٣) الفكاهة فى مصر : ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

ويروى عن حافظ حين نظم أمير الشعراء فى وصفه حفلة راقصة فى القصر مقطوعته التى مطلعها :

مال واحتجب   وادعى الغضب

فيقال إن حافظا فى أثناء نزهة له مع صديقه البشرى بجزيرة الروضة قد جعل وصديقه يتناوبان القول فى معارضة هذه المقطوعة على جهة الهزل فإذا المطلع :

شال وانخبط   وادعى العبط

قل لهاجرى   يبلع الزلط

حتى بلغ هو وصديقه من ذلك نحو الستين بيتاً . [1] .

ويشير العقاد إلى صوت حافظ الجميل ، ولباقته فى الإلقاء ، اللذين كانا لهما وقع كبير فى جذب الأسماع إليه . ثم يقول : « وكنت أداعبه فأقول له : إنك بأن تملأ قوالب الحاكى ، (الاسطوانات) أحرى منك بطبع صفحات الدواوين ، فكان يقول : وتكون أنت « عقادى » على تخت الغناء . » [2]

ومن طرائف حافظ أيضاً ونوادره ، أنه كان يذهب إلى حديقة الأزبكية بعد أن ينتهى من مسامرات الأصدقاء ، وذلك عندما يشعر أن ربة الشعر قد جادت عليه بشىء منه ، فكان يجلس تحت شجرة عاتية مظلة متهدلة الأغصان ، تسميها العامة « أم الشعور » ويسميها حافظ « شجرة البؤساء» [3].

---

(١) حياة حافظ : (مهرجان حافظ إبراهيم بالاسكندرية ١٩٥٧) ص ١٦٠ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى : ص ١٥ .

(٣) الفكاهة فى مصر : ص ٨٢ .

ويروى أن سيدة الغناء أم كلثوم ، كانت من شلة حافظ إبراهيم ، وعبد العزيز البشرى ، وكانت تلميذة لهما ، وكانت لها معهما ومع أصدقائهما جولات وحكايات .

لقد تعلمت أم كلثوم منهما فنون الأدب ، وفنون النكتة أيضاً . ومن النوادر التى تروى عنهم ، أنهم كانوا مدعوين للغذاء فى دار رجل اسمه سكر ، كان من مشاهير صناعة الطباعة وتجليد الكتب ، وطال بهم المقام فى انتظار الطعام ،وقد ضجت دار سكر بالدق فى هاون النحاس ، فقال حافظ

ما هذه الضجة التى نسمعها ؟! وما هذا الدق بالهاون ؟! فقالت : أم كلثوم « أصلهم بيكسروا راس سكر » وكان السكر يصنع فى ذلك الزمان على هيئة أقماع يطلق عليها : « راس سكر » (١)

وإن كان الدكتور شوقى ضيف يسند هذه الرواية إلى محمد عثمان جلال وليس لأم كلثوم . (٢)

ومن ثم نخلص إلى أن النكتة عند شاعر النيل ، كانت تتسم بسمات إنسانية ، ومضامين روحية ، فى ثوبها الفكاهى ، وإطارها الاجتماعى . وتبدى ذلك فى :

- الفكاهة بوصفها مطلباً وغاية أساسية
- النقد الساخر لبعض الأنماط الاجتماعية .
- تزجية أوقات الفراغ مع الأحبة والأصدقاء .
- تسامى روح الشاعر عن عالمها الواقعى ، بما به من مكدرات وضغوط .

---

(١) قهاوى الأدب : ص ١١١ .

(٢) الفكاهة فى مصر : ص ١٢٩ .

- النكتة بوصفها هدفاً له غرضه ، سواء على المستوى الشخصى ، أو الجماعى .

- اختلفت النكتة باختلاف الأشخاص والظروف والمواقف .

ولهذا شهدت هذه الجوانب مآثر حافظ فى هذا الباب ، فجاءت معبرة عن عصرها ، بشخوصه ، وتياراته ، وأحداثه .

ب - الشعر :

على الرغم من شخصية حافظ الجادة ، التى برزت من خلال أشعاره ، إلا أننا نلمح بين هذه الأشعار بعضاً من القصائد التى تتزىّ بالمرح ، ويغلب عليها جانب الفكاهة ، فترتدى ثوب التهكم ، ويصبح السخر مادتها الأولى.

وكان ذلك ثمرة لما كان يجمعه ببعض المقربين من الأصدقاء والخلان ، الذين اتخذهم شاعر النيل صحبة وندماءً .

ومن ثم كانت تنطوى شخصية حافظ على شىء من الألغاز والتناقض ، فبينما هو الشخصية المرحة ، ذات النكات اللاذعة ، والحضور المؤثر فيمن يحيطونه ، «بقفشاته» وملحه الجاهزة ، إذ هو فى الوقت ذاته الشخصية الجادة المتجهمة فى أشعاره وإبداعه ، وإن حفظ ديوانه شيئاً لا يستهان به من تلك القصائد .

ولسنا مع الدكتور عبد الحميد سند الجندى ، الذى يرى أن شعر حافظ يعد خلواً من تلك الجوانب . إذ يقول : «بيد أننا نلاحظ أن شعر حافظ قد خلا أو كاد من الفكاهة التى عرف بها فى المجالس والسوامر ، ولا نجد لهذه الروح أثراً فى شعره إلا أثارات قليلة جداً ، أشبه بالدعابة الخفيفة منها بالنكتة والفكاهة .... لأنه كان يعتبر الشعر ضرباً من الفن الرفيع ، يجد عن أن تشوبه هذه الفكاهات ، أو بعبارةأخرى ، كان يعد الشعر ضرباً من الأدب «الأرستقراطى» لا يصح أن تدنسه هذه النوادر الشعبية» (١)

غير أننا نعرض لهذه القصائد التى اتسمت بطابع الفكاهة والسخرية ، فهى لم تنقل لنا روح صاحبها ومبدعها فحسب ، وإنما نقلت لنا ما كان

---

(١)حافظ إبراهيم شاعر النيل : ص ١٨٢ .

عليه العصر ذاته من ملامح حضارية وإنسانية .

فلا شك أنها ألقت الأضواء على جيل بأكمله ، ترك لنا جانباً كبيراً من الأدب الإنسانى ، بعد أن عبر عن واقعه بصدق وموضوعية .

ومن أشهر هذه القصائد : قصيدته فى صديقه «حفنى ناصف» مهنئاً إياه بانتقاله من القضاء إلى دار المعارف ، وقد جاءت من البحور القصيرة ، التى توافقت مع نفس الشاعر ، وروحه الساخر ، لتتوائم مع هذا اللون من الأدب الفكاهى ، بإيقاعاته وموسيقاه ، فيقول :

يا من ضربتَ بسهمٍ	فى كل علمٍ وفنّ
بنيت للشعر فينا	والنثر أعظمَ ركنِ
فإن بدأت بقولٍ	منه فبالكأس ثنّ
وطرْ إلى اللهو وارغبْ	وعن حكمة المتأنى
فالعيشُ فى بنت فكرٍ	تجلى وفى بيت دنّ [1]
وإنْ طلبتَ مزيداً	ففى مناجاة خدْنِ [2]

وهكذا يمزج حافظ بين صفات هذا الأديب الموهوب ، وعلو كعبه فى فنون الأدب ، شعراً ونثراً وعلماً ،وبين هذا القالب الفكاهى الذى ابتدعه ، وإن خرج كثيراً فى وصفه ومزاحه .

ثم يغالى الشاعر كثيراً فى مداعباته لهذا الصديق ، لدرجة نرى فيها حافظ الحقيقى صاحب النكتة الصافية ، والملح العذبة ، حيث نقف على شخصيته الثانية ، التى لم تظهر فى شعره بنفس المقدار ، الذى رأيناه فى نكته ودعاباته، ولكنها على أية حال، قد أخذت مكاناً ما فى هذه الأشعار،

(١) بنت الفكر : نتاج القرائح والأفكار . وبنت الدن : الخمر . والدن : وعاء كبير لها .

(٢) الديوان : جـ١ : ص ١٨٠ .

وشكلت جزءاً مهماً منها مع هؤلاء الأصدقاء ، فيقول :

لولا الحياءُ ولولا ... ديني وعقلي وسنّي
لقمت في يوم (حفني) ... أدعو لسكرة (ينّي)[1]
ولا أقول (لحفني) ... ما قيل قدماً لمعنِ[2]
لاتنس عيشاً تولىّ ... ما بين شرحٍ ومتنِ
ولىّ شبابُك فيه ... ما بين مدٌ وغنّ
وذقت من (جاء زيدٌ) ... ومن شروحِ الشُّمَنِّي [3]
ومن حواشي الحواشي ... على متون (ابن جنيٌ)[4]
ما لم تُذقك الليالي ... قلبن ظهر المجنّ
أيام (سلطان) يلهو ... (بمشّه ويغني)[5]
يبيت يقصع ما لم ... أسمّه أو أكني[6]
يشكو إليك وتشكو ... إليه عيشة غبنِ
أيام يدعوك : (حفني) ... من الحياة أجرني
هات المسدس إنيّ ... سئمتُ (مِشيٌ) و (جُبنى)

(١) مثل مصرى يضرب فى كثرة الإفراط فى الشرب والسكر (الحاشية) .

(٢) يشير بذلك إلى معن بن زائدة الشيبانى وقد هجاه أحد الشعراء بقصيدة ، منها :

أتذكر إذ لحافك جلدُ شاةٍ ... وإذ نعلاك من جلد البعير

(٣)هو العباس تقى الدين أحمد بن محمد التميمى الحنفى من علماء القرن التاسع ولد بالإسكندرية وتوفى سنة ٨٧٢ هـ .

(٤) هو أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى ، إمام من أئمة النحو ، توفى سنة ٣٩٢ هـ .

(٥) هو سلطان محمد بك أحد زملاء حفنى فى الأزهر ودار العلوم ، وأستاذاً بها وبالجامعة المصرية القديمة .

(٦) قصع : ابتلع جَرعَ الماء ، وشدة المضغ .

مــن لــى بــدرهــم لحــمٍ عليــه حــبــةُ ســمنِ
قرمتُ[1] والــلــه حــتــى صــاحت عــصــافيــر بطنى [2]

وبهذا حلقت نفس حافظ الهائمة فى سموات الإبداع ، مع سجايا هذا الصديق بعد أن عددتها ، واستوفت معالمها ، الحسية والمعنوية . «ثم أحسّ بأنه قد خلع عن الشعر ثوب الوقار و «الأرستقراطية» بهذه الدعابات الخفيفة ، فاعتذر عن هذا المزح ، وأخذ يلقى التبعة على صديقهم الدكتور (إبراهيم شدودى) [3] وهو شاعر معروف ، كان قد نظم مقطوعة فى تكريم حافظ ، نحا فيها هذا النحو من المزاح [4] فيقول :

أســرفت فى المزح فــاصــفح يــاســيــدى واعفُ عنىّ
فــالــذنبُ ذنبُ شــدودي فــالعنْ (شــدودى) ودعنى[5]
قــد سنَّ فــينا مــزاحــاً على الحــقــيــقــة يجنى
ذقتُ الأمــريْن مــنه فــسل (سليــمــا) وسلنى[6]
واســمع مــديح مــحبٍ يُطــرى بــحــق ويــثــنــى [7]

ومن ثم فقد اتخذ حافظ إبراهيم من أصدقائه مادة لدعاباته ونكته الساخرة ، يهوى بها على رؤس الجالسين من هؤلاء الأصدقاء ، فى مسامراتهم ومناسباتهم الخاصة .

---

(١) القَرَمَ : شدة الشهوة إلى اللحم .
(٢) الديوان : جـ ١ : ص ١٨٠ .
(٣) حافظ إبراهيم شاعر النيل : ص ١٨٤ .
(٤) الحاشية ص ١٨١ .
(٥) هو الدكتور ابراهيم شدودى الطبيب والشاعر الأديب .
(٦) هو سليم سركيس الكاتب اللبنانى ، كان محرراً لمجلتى "المشير" و "سركيس" (١٨٦٩ -١٩٢٥)
(٧) الديوان : جـ ١ : ص ١٨٠ .

ومن تلك القصائد التى تدور فى هذا الإتجاه ، قصيدته فى الدكتور محجوب ثابت ، وهى قصيدة ، يتضح فيها تهكم الشاعر الشديد على هذا الصديق ، وإن وشحت بشئ من الظرف والدعابة (وكان كلاهما فى ضيافة المرحوم الزعيم سعد زغلول وكان الدكتور مشغولاً بوزارةيتولاها أو فتاة غنية يتزوجها) يقول شاعر النيل ، معدداً صفات ذلك الصديق ، وشارحاً لها :

يُرغى ويُزْبِدُ بالقافات تحسَبُها ... قصفَ المدافع فى أفْقِ البساتينِ[1]

من كل قافٍ كأن الله صورَها ... من مارج النار تصوير الشياطينِ

قد خصه الله بالقافات يعلكُها ... واختص سبحانه بالكاف والنونِ[2]

يغيبُ عنه الحجا حيناً ويحضره ... حيناً فيخلط مختلاً بموزونِ

لا يأمن السامع المسكين وثبته ... من كرد فان إلى أعلى فلسطينِ

بينا تراه ينادى الناس فى حلبٍ ... إذا به يتحدىً القومَ فى الصينِ

يبيتُ ينسجُ أحلاماً مُذَهَبةً ... تُغنى تفاسيرُها عن ابن سيرينِ[3]

طوراً وزيراً مشاعاً فى وزارته ... يَصَرِّفُ الأمرَ فى كل الدواوينِ

وتارةً زوج عطبولٍ خَدَلَّجةٍ ... حسناءَ تملكُ آلاف الفدادينِ[4]

يعفى من المهر إكراماً للحيته ... وما أظلته من دنيا ومن دينِ[5]

فقد أخذ حافظ يعدد ، ويفصل ، سمات شخصية الدكتور محجوب ،

---

(١) يشير بهذا البيت إلى كثرة استخدام الدكتور محجوب لحرف القاف .

(٢) يعلكها : يمضغها .

(٣) هو أبو بكر محمد بن سرين البصرى ، كانت له اليد الطولى فى تعبير الرؤيا ، توفى سنة ١١٠هـ انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ، دار صادر - بيروت (د . ت) المجلد الرابع : ص ١٨٢ .

(٤) العُطبولُ : المرأة الفتية الجملية الممتلئة ، الطويلة العنق . الخدلَّجةُ الممتلئة الزراعين والساقين .

(٥)الديوان : جـ ١ : ص ١٨٠ .

مستعرضاً صفاته وأحواله ، متهكماً مرة مداعباً أخرى ، إلا أنه قد وصف فأوفى ، وداعب فأفاض وسخر فجاوز . «ويمكننا من هذه الأوصاف ، أن نتصور الدكتور محجوب بلحيته الكثيفة الطويلة ، وطربوشه الملقى إلى الخلف ، وشاربه النازل إلى لحيته ، وقافاته الرنانة المهيبة التى يرددها هنا وهناك دون حساب ، ولا يكاد يغفل عنها ، وأحاديثه التى تتناول مختلف البلاد والأماكن ، يخلط فيها أحياناً كأنه غافل عن بعضها ، ومع ذلك فهو يطرق كل موضوع ، ويناقش كل فكرة ، ويدلى بكلامه فى مناسبة وغير مناسبة ، ثم هو رجل فكه واسع الصدر ، لا يضيق بالمرح ، ولا يؤلمه تندر الأصدقاء ، يتقبل النكتة ويستريح إليها ، ولعله يفتقدها إن غابت ، ويتلمس الطريق إليها بحاسة قوية وشغف ، ولعله قبل أن يتخذ منه الأصدقاء رموزاً كثيرة ، لما ينبغى أن تسلط عليه الأضواء من عيوب ، قد لا تكون كلها أو بعضها موجودة فيه ، ولكنها على كل حال ، لو صح وجودها فى شخص ما ، فيجب أن تكون هدفاً لسخرية الناس وفكاهاتهم.[1]

ولم يكن حافظ هو الشاعر الوحيد الذى كتب عن الدكتور محجوب ، ولكن كثيراً من الأدباء قد اتخذوا منه موضوعاً لنكاتهم ، ومداعباتهم ، وسخرياتهم ، منهم ، أمير الشعراء أحمد شوقى .[2]

وبهذا نرى كيف تعددت دعابات شاعر النيل ، وسخرياته مع الأصدقاء، فى مجالات الفكر ، والأدب ، والفن ، والسياسة ، لتبين عن اتساع أفق شخصيته ، كما أنها تدل على مكانته بين هؤلاء جميعاً .

---

(١) السخرية فى أدب المازنى : ص ١١٧ .

(٢) له أربع قصائد تحت عنوان "محجوبيات" . انظر الشوقيات جـ٤ ص ٢١٣ .

ومن تلك الدعابات ، ما بعث به إلى نقيب الأشراف في ذلك الحين ، السيد محمد الببلاوى ، عندما وُلِّىَ النقابة سنة ١٩٢٠ ، وفيها نقف على جوانب من العزة والإباء فى شخصية حافظ ، تكشف عنها هذه الأبيات . فيقول :

قل للنقيب لقد زرنا فضيلته ... فذادنا عنه حراسٌ وحُجّابُ

قد كان بابك مفتوحاً لقاصده ... واليومَ أوصدَ دون القاصد البابُ

هلاّ ذكرتَ(بدار الكُتْبِ)صُحبتَنا ... إذ نحن رغم صروف الدهر أحبابُ

لو انَّنى جئتُ (للبابا) لأكرمنى ... وكان يُكرِمُنى لو جئته(البابُ)[1]

لا تخشى جائزةً قد جئتُ أطلبُها ... إنى شريفٌ وللأشراف أحسابُ

فاهنأ بما نلتَ من فضلٍ وإنْ قُطعتْ ... بينى وبينك بعد اليوم أسبابُ[2]

ففى طيات ذلك ، لم ينس الشاعر أن يذكره بما كان بينهما من صلات وروابط ، لم ينس كذلك أن يذكره ، أن نفساً كنفس حافظ ، لا ترضى إلا الإباء والكبرياء ، ذلك ما يكشف عنه البيت الأخير .

وهكذا نرى فى كل هذه المداعبات ، أن شخصية الشاعر . هى القاسم المشترك بينها جميعاً فكونت بذلك منظوراً كاملاً لهذه الشخصية، حتى أننا نستطيع أن نترسم ما كانت عليه ، من خلال مواقفها الحياتية ، وأخبارها اليومية ، كما جاءت فى سياق تلك القصائد ، وأبانت عنها هذه الأشعار .

غير أنه ، يتكرر مع الزعيم سعد زغلول ، ما كان قد جرى مع نقيب الأشراف ، حيث يصطدم الشاعر مرة أخرى بالحُجّاب ، الذين يحولون دون

(١) «الباب» رأس الطائفة المعروفة بالبابية ، وهم فرقة من غُلاة الشيعة ، وسمى بابا لأنهم يعدونه باب المهدى ونائبه .

(٢) الديوان : جـ ١ : ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

مقابلة هذا الزعيم ، إلا أن الشاعر ، يبعث إليه ببيتين من الشعر ، يستأذنه فيهما بالدخول :

قلْ للرئيس أدامَ اللهُ دولَتــه بأنَّ شـاعِره بالبــاب منتظرُ
إنْ شـاءَ حدَّثه أو شـاءَ أطربه بكل نادرة تُجْلَى بها الفكرُ[1]

ثم ينتقل بنا شاعر النيل إلى صورة أخرى ، يصل فيها التندر والظرف إلى مدىً بعيد ، حينما يهجو نفسه ، فنرى صورة مجردة ، أبرزها الشاعر فى لوحة ساخرة ، وصف نفسه خلالها وصفاً (كاريكاتورياً) ساخراً ، نشاهد فيه رجلاً حافياً ، جائعاً ، عارياً .

ذلك ما بعث به إلى أحد الأصدقاء ، هو الأستاذ حامد سرى فى يوم زفافه . فيقول :

أحـامدُ كيف تنسـانى وبينى وبينك يا أخى صلةُ الجــوارِ
سـأشكو للوزير فـإن توانى شكوتُك بعدَه للمستـشـارِ[2]
أيشبع مصطفى الخولى وأمسى أعـالجُ جوْعـتى فى كِسْرِ دارى
وبيــتى فـارغٌ لا شىء فـيـه سـواى وإننى فى البيت عـارى
ومـالى جـزمـةٌ سـوداءُ حـتى أوافـيـكم على قــرب المزار
وعندى من صحـابى الآنَ رهطٌ إذا أكلوا فـآســادٌ ضَوارى
فـإن لم تبـعـثـنَّ إلىَّ حـالاً بمائدةٍ عـلى مـتن البُخـــارِ
تغطيـهـا من الحَلْوَى صنوفٌ ومن حَمَلٍ تبـتـلَ بالبـهـارِ
فـإنى شـاعـرٌ يُخـشى لسـانى وسوف أريَك عـاقبة احتقارى[3]

(١) الديوان : جـ ١ : ص ١٨٩ .

(٢) يريد وزير الزراعة ؛ وكان حامد سرى من رجال هذه الوزارة .

(٣) الديوان : جـ ١ : ص ٢٠٤ .

إنه حافظ إبراهيم ، ذو الشخصية المتناقضة ، فهو ضاحك هازئ ساخر، لأقصى ما يمكن أن يصل إليه السخر ، وهو حزين كئيب ، كأنه خسر الدنيا كلها . وعلى هذا لا نستطيع أن نفصل بين الجانبين ، وأيهما أحق بالصدارة من غيره .

وما من صديق إلا وله جولات وصولات مع شاعر النيل ، فيها النكات السافرة ، والدعابات الساخرة ، التى تستهوى النفوس وتجذب القلوب ، غير أن بعضها لاذع ، يهوى به الشاعر على أجساد هؤلاء الأصدقاء ، بل يصل فيها - أحياناً - إلى حد الفحش ، والبذاءة ، والخروج باللفظ ، الذى يخدش الحياء ، وينال من تلك الشخصيات ، وإن خرج جميعه من تحت عباءة النكتة ، والدعابة ، والنادرة .

ومن ذلك ، قصيدته فى صديقه المعروف محمد البابلى ، يعاتبه فيها ويداعبه ، بل يهجوه ويحقر منه . فيقول :

أدلالٌ ذاك أم كســــلُ	أم تنــاسٍ منــك أم مـلـلُ
أم غـــريقٌ أنت فى جـــدلٍ	أم بكاســـات الهنا ثَمِلُ
أم - وقــاك الله - فى كـدرٍ	أم على الأعــذار مــتكلُ
أم مـــشــوقٌ مـغــرمٌ ولهٌ	شـفَّه التـشـبـيبُ والغـزلُ
أم غنىٌّ بات يـشـــغَلُه	مــــالهُ والكسبُ والأملُ
أم وَشـىَ واشٍ إلــيـك بـنـا	فـاحـتـواك الشكُّ (يابطلُ)
قـد مـضى شـهـرٌ وأعـقـبَه	ضِعـفُه والفكرُ مـشـتـغلُ
لا كـتـابٌ منك يطفئُ مـا	فى فـؤادى باتَ يشـتـعلُ
لا ولا ردٌّ يُعـــلِّلُنــى	أو على التسليم يشـتـملُ
يا صـــديقى لا مـؤاخـذةٌ	أنت يـابنَ البـابلى ...[1]

(١) الديوان : جـ ١ : ص ٢٠٣ .

(..) هنا كلمة محذوفة تخدش الحياء ، ولا تخفى على القارىء .

وبهذا نلمح خروج حافظ السافر ، حتى أنه يكاد يجرح أحاسيسنا ، ويشعرنا بالخجل والاستحياء، ذلك ما وقفنا عليه في بيته الأخير ، غير أننا وجدنا شخصية منطلقة ، هي شخصية شاعر النيل ، تلك الشخصية التي لا تحدها الحدود ، ولا تقف أمامها العوائق ، مهما كانت نوعيتها ،فتبدو على سجيتها ، ترنوإلى غايتها ، في غير تحفظ أو استحياء . فيقول :

أفـتى القـوافى كـيف أنـ — ـت؟ فـقـد أطلت تحسُّرى؟
أتُرى أراك أم الـلـقــا — ءُ يكونُ يومَ المحــشــرِ
... ... — ... ...[1]
مــا كــان ظنى أن تعــيـ — ـش أيا لئــيم المكســرِ
ولقــد قُذفت إلى الجــحــيـ — ـم وبئس عُقــبى المنكرِ
تالله لو أصــبــحت (أفـ — ـلاطون) تلك الأعــصُرَ [2]
وغــدا (أبقــراط) [3] بــا — بك كــالعــديم المُعسِــرِ
وبَرَعْت (جــالينوسَ)[4]أو — (لُقــمــانَ) بين الحُضَّرِ
مــا كنت إلا تافــه الآ — داب عند المعــشَرِ [5]

وعلى هذا يمضي الشاعر منذ البداية ، هاجياً ساخراً من هذا الصديق ، الذي أخذ يعد عليه سقطاته وعيوبه ، فيقدم ويؤخر ، ثم يمدح ويهجو ، في تهكم واحتقار وازدراء .

(١) هنا نضرب عن ذكر أبيات اقتضاها مقام المداعبة بين صديقين حميمين لا يصح نشرها.(الحاشية)
(٢) أفلاطون : فيلسوف يوناني معروف ؛ ولد في سنة ٤٢٧ ق . م ، وكانت وفاته في سنة ٣٤٧ ق.م
(٣) هو إمام مشهور ببعض علوم الفلسفة ، وله تآليف في الطب ، كان قبل الإسكندر بنحو مائة عام. انظر : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء،لابن القاضي ، مكتبة المتنبي-القاهرة (د.ت)ص٦٤.
(٤) ظهر بعد٦٦٥سنة من وفاة أبقراط،وهو الثامن من الرؤساء،الذين أولهم اسقلبيادس مخترع الطب، ولد سنة ١٢٩ميلادية . انظر : الفهرست لابن النديم دار قطرى بن الفجاءة- قطر - ١٩٨٥ . ص ٥٧٧ .
(٥) الديوان : جـ ١ : ص ١٩٢ .

وهنا يتبدى لنا أسلوب الجاحظ ،[1] فى (رسالة التربيع والتدوير)[2] وكيف جعل من محمد بن عبد الوهاب أضحوكة يسخر منها ، ويلهو بها .

لقد اقترب الشاعر كثيراً من ذلك (الأسلوب الجاحظىّ) فصنع بصديقه ما صنع الجاحظ . «فقد تكون الدعابة - أحياناً- من السخرية ، حيث يسرى بها عن النفس ، ويجلب بها السرور ، وتتخذ مادتها من نقاط الضعف فى الأصدقاء ، ومن الصفات الشائعة عنهم ، والبارزة فيهم ، أو فى مسقط رأسهم ، أو جماعتهم ، وهى لا تعنى إهانة ، ولا إيلاماً ، وقد تكون بسيطة جداً ، فلا يكون وراءها دافع ملح ، ولا باعث شديد ، ولا تجرى وراء هدف مبلور ، يتعلق بالشخصية نفسها ، وإن كانت لا تخلو من تأثير معين بهذه المادة التى أسهمت فى خلقها ، وتعطى إلى جانب الرغبة فى التسلية إيماءً بالمنطق العام ، الذى يسود الفكر ، أو النموذج المثالى الذى يتطلع إليه الإنسان ، جاداً أو هازلاً ، أو مازحاً .[3] وحسبنا مثالاً آخر من ذات القصيدة . يقول حافظ :

غفرانك اللهُمَّ إنىّ ... من ظُلامته برِى

سويته كالكركدن ... وجاءنا كالأخدرى [4]

وجهٌ ولا وجهُ الخُطو ... ب وقامةٌ لم تُشْبَرِ

ومن العجائب أن مثـ ... ـل لسانه لم يُبتَرِ

كم بات يلتحم العرُو ... ضَ وجاء بالأمر الفَرِىَ

فافعلْ به اللهُمّ كالـ ... ـنمروذ فهو بها حرِى

وانزل عليه السُخَط إنْ ... أمسَى ولم يستغفرِ [5]

---

(١) هو عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) انظر الأعلام ٧٤/٥ .

(٢) انظر: رسائل الجاحظ جـ١ ط أولى تحقيق: عبد السلام هارون-مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٧٩ ص٥٥

(٣) السخرية فى أدب المازنى : ص ٢٢ . (٤) الكركدن : وحيد القرن والأخدرى : الحمار الوحشى .

(٥) الديوان : جـ ١ : ص ١٩٣ .

ولم يغفل الشاعر صفة البخل التى اتسم بها هذا الصديق ، فيذمها بطريقته هو ، وبذات المنهج الذى ابتدعه ، ذلك الذى يقوم على الفحش ، واستخدام النابى من الألفاظ ، ثم ذكر الأشياء بمسمياتها ، وكأننا أمام شاعر قد خلع عن وجهه ثوب الحياء ، غير أنها طريقته الخاصة فى التعبير، فى أسلوب ينأى عن الالتزام ، ونهج يفتقد الاحتشام ، فيقول :

فـهـو الذى ابتـدعَ الربا	وأقـام ركـنَ الـفُجُرِ
وأقـام دين عـبـادة الـ	ـديـنـار بـين الأظـهُرُ
ولقـد عـجـبتُ لبـخله	ولكفـهِ المسـتـحـجـرِ
لا يصـرف السـحـتوتُ إ	لا وهو غـيـر مـخـيَّرِ
لـو أن فـى إمـكـانـه	عـيـشـاً بغـيـر تضـورِ
لاخـتـارَ سـدَّ الفـتـحـتـيـ	ـن وقـال : يا جيبُ احذرِ [1]

هذه نماذج لشخصيات أحبها حافظ ، فقال فيها شعراً يدخل فى باب الأدب الفكاهى ، وإن توسل فيه بشئ من السخر والتهكم ، معدداً من خلالها صفات هذه الشخصيات ، غير أن ذلك يبين عن الوشائج القوية ، التى ربطت شاعر النيل بتلك الصحبة المختارة .

والحديث عن هؤلاء لا ينقطع صوته ، حُفظ بين صفحات من الأدب الإنسانى ، امتد زمانها . من نهاية القرن التاسع عشر ، حتى قرابة الثلث الأول من القرن العشرين .

والكلام عن أى من تلك الشخصيات ، فى حاجة إلى تفصيل . ومهما يكن من أمر ، فقد خلفت لنا هذه الشخصيات ، بعضاً من المآثر الخالدة ،

(١) الديوان : جـ ١ : ص ١٩٤ .

التى دارت بين الإنسان والإنسان ، فى زمن من الأزمنة ، وعصر من العصور.

ولقد وعته القريحة الأدبية ، وسجلته للناس ، وإن ضاع أكثره ، إلا أنه دخل الأدب الفكاهى من أبواب واسعة .

ومن ثم ، لم يكن غريباً ألا يفترق شاعر النيل عن تلك الصحبة ، وأنى له ذلك ؟!

ولهذا ، عندما فرق البين بينهم ، تسمع صوته عالياً ، يشوبه شىء من الوجد والأسى ، فيقول من السودان ، وقت أن كان بالجيش ، تحت عنوان : «ذكرى» :

مِن واجدٍ مُنفَّرِ المنام
طريدِ دهرٍ جائرِ الأحكام
مُشتتِ الشملِ على الدوام
ملازمٍ للهمِّ والسَّقام
إليكم يا نُزهةَ الأنام
وفتيةَ الإيناس والمُدام
من أقسموا بألزم الأقسام
بأن يُقَضُّوا دولةَ الظّلام
ما بين بنتِ الحانِ والأنغام
ومطربٍ من خيرةِ الأقوام
أرقَّ من شعرِ (أبى تمام)[1]
ومجلسٍ فى غفلة الأيام

(١) هو الشاعر حبيب بن أوس ، توفى سنة (٢٣١هـ / ٨٤٦م) انظر الأعلام ٢/١٦٥ .

قـد ملّ فـيـه كـاتبُ الآثام

تحـيـةُ كـالورد فى الكمَام

أزهىَ من الصحبة فى الأجسام

يسـوقـهُا شـوقٌ إليكم نامي

تقـصـرُ عنه هِمّةُ الأقـلام [1]

وذلك ما كان لا يقدر عليه هذا الطائر الطليق ، والبلبل الغريد ، الذى ينتـقل من فنن إلى فنن ، ومن روض إلى روض ، فـالكون كله مـلاذه ، والطبيعـة مهبط وحيه ، والحرية ديدنه ، والرفقة مقصده ، والحب بلسمه الشافى ، يمحو أحزانه ، ويؤنس وحدته ، ويبدد بؤسه ، بعد أن يعود فى الهزيع الأخير من الليل ، خالياً إلى نفسه ، منكباً عليها .

لهذا لا يفتأ ينعى تلك الأيام ، ويأسى لها ، متحسراً على نشوة الصبا ، فى تلك المجالس ، بما بها من أنس وطرب ، تشتاقه النفس ، فيذكر بعضاً من تلك الرفقة ، وقد شاركوه عبق الليالى ، وأريجها الصافى ، بعد أن نهلوا من ينابيعها ، فلما انطوت ، انطوت معها صفحة من عمره الجميل، فيقول :

كُنّا على عهـد الصِّبا سبعةً ... بُمستطاب اللهـو نستـأثرُ

(البـابلي) صـفـوةُ فـتـيـاننا ... و(ابن المولحى)الكاتبُ الأشهرُ

و (صادق) خيـر بنى (سيد) ... و (بيـرم) إذ عـوده أخـضـرُ

وكـان (عبد الله) أنسـا لنا ... وأنسُ (عـبـد الله) لايُنكرُ

لهـوٌ كـريم لم يشبْ صـفـوَهَ ... رجسٌ ولم يشهـده مستـهتـرُ

---

(١) الديوان : جـ ١ : ص ١٩٧ .

فكم لنا من مجلسٍ طيبٍ   يشتاقهُ (هارونُ)[1] أو (جعفرُ)[2]

نلعبُ باللفظ كما نشتهى   ونضمرُ المعنى فما يظهرُ

ونرسل النكتةَ محبوكةً   عن غيرنا فى الحسن لا تصدرُ

ثم انطوى هذا وهذا وما   يُطوى من الأيام لا ينشرُ

كم دوحةٍ أودى بها عاصفٌ   والنجمُ من مأمنه ينظرُ [3]

وفى ضوء ما عرضنا آنفاً ، رأينا صورة واقعية حقيقية لشاعر النيل ، سواء كان ذلك من خلال ما وقفنا عليه فى جوانب شخصيته الخاصة ، أو من خلال مجالسه ومسامراته مع الأصدقاء ، تلك التى شغلت جانباً كبيراً عند أعلام الجيل الماضى ، فشغلوا الناس بدورهم حيناً من الدهر ، بعد أن فاضت مجالسهم هذه بفيض من أعذب الحديث وأحلاه ، انساب على شفاههم نغماً شادياً ، فتناقلته الأجيال ، ورددته الألسنة ، واستمتعت به العقول ، بعد أن أمتع أصحابه فترة من الزمن .

لقد حفل هذا العرض ، ببعض من جوانب هذه الشخصية ، إلا أننا نؤكد هنا ، أن حافظاً شخص يختص بأكثر من خصيصة ، غير أن هذه الخصائص جميعها ، تتبلور فى ناحيتين مهمتين : شخصية جادة ، متجهمة، مكتئبة، حزينة ، كأشد ما يكون الجد ، وذاك الحزن والاكتئاب ، وشخصية لا تملك من ذلك شيئاً ، تعيش فى عالم من الفوضى . وعدم الاكتراث بما حولها .

(١) هو الخليفة هارون الرشيد المتوفى سنة (١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) الأعلام ٨/٦٢ .
(٢) هو جعفر بن يحى بن خالد البرمكى ، وزير الرشيد المتوفى سنة (١٨٧ هـ / ٨٠٣ م) الأعلام ٢/١٣٠ .
(٣) الديوان : جـ ١ : ص ١٩٧ .

ذلك ما كان عليه شاعر النيل ، حافظ إبراهيم ، فى حياته التى شغلت فترة مهمة من تاريخ مصر ، كانت حافلة بألوان شتى من التقلبات والصراعات ، شارك فيها الشاعر بأشعاره ، وجهده ، وحسه الوطنى ، العازف على وتر من الحب ، والوفاء ، والتضحية ، لشعبه وبلده وأمته .

الباب الثانى

السخرية ومجالاتها فى شعر حافظ إبراهيم

الفصل الأول : السخرية من السلطة

الفصل الثانى : السخرية من المجتمع



تعد السخرية أرقى أنواع الفكاهة ، لأنها تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر . ولذلك اتخذ منها الفلاسفة والأدباء أداة ، يستخدمونها فى دقة لبيان رأيهم فى الخرافات السائدة ، أو المذاهب التى يختلفون معها ويهزأون بها ، كما لجأ إليها رجال السياسة فى التندر بخصومهم ، وما يمثلون من أفكار أو مبادئ ، وهى فى هذه الحالة تكون أشبه باللذع الخالص ، الذى يكون جارحاً أحيانا ، ومن هذا اللون ما نطلق عليه التهكم ، وقد يكون الهجاء مع فظاظته وخشونته نوعاً من السخرية ، وعلى الرغم مما يبعثه أحياناً فى نفس المهجو من الضيق والألم ، فإنه يثير الضحك عن طريق إبراز العيوب وتجسيمها ، والمبالغة فى تصويرها ، إلى الدرجة التى تجعل المهجو غير ملائم للصورة الطبيعية التى يجب أن يكون عليها الكائن . »[1]

فالسخرية تنشد المثالية الراقية ، والمثل الرفيعة ، فغرضها إلى الكمال أقرب منها إلى السفه والتدنى ، غير أن الغاية عندها تبرر الوسيلة ، بينما الهجاء لون واحد ، ذو هدف لايخطئه ، وغرض لا يتخطاه ، هو القضاء على الآخر والنيل منه ، بعد هدمه وتجريحه ، وليس لغرض دونه أو سواه .

ومن ثم « يتسع باب الهجاء للنيل الجارح للأعراض ، وإبراز المخازى ، والكشف عن السوءات ، فلا يعف فيه الأديب أو الشاعر عن رمى خصمه بالمثالب ، وتعريته أمام الناس ، ومحاولة إظهاره فى صورة قبيحة تقذى بها العيون ، وتشمئز منها النفوس ، ويندى لها جبين الفضيلة والإنسانية ، ليثير الضحك منه والسخرية . »[2]

---

(١) السخرية فى أدب المازنى : ص ١٦ . وانظر الفكاهة فى مصر : ص ١٠ ، ١١ .

(٢) نظرات فى أصول الأدب والنقد : ص ٢٥٤ .

ويقارن الدكتور أحمد الحوفى بين التهكم والهجاء فيقول : أما الفرق بين التهكم والهجاء ، فهو أن الهجاء صادر عن نفس واجدة غاضبة حاقدة ، بينما التهكم صادر عن نفس ساخرة ناقدة، مبرأة من الحقد والموجدة . ثم إن الغرض من الهجاء التجريح والتشهير والانتقاص والعدوان ، بينما الغرض من التهكم التهذيب والتقويم والإصلاح ، ويكثر فى الهجاء السب والإقذاع، لكن التهكم لا سب فيه ولا إقذاع . (١)

والسخرية التى نحن بصدد دراستها عند شاعر النيل حافظ إبراهيم ، تختلف بعضاً من الاختلاف عما تعورف عليه هذا المصطلح ، لدى الخاصة من الباحثين والأدباء ، وكما تعورف عليه بوصفه مفهوماً أدبياً ، فالسخرية هنا ، ليست من الأشخاص ، وإن كانوا هم مادتها ، وليس غرضها إضحاك الآخرين - كما يحدث فى الغالب - وإن كان ذلك يحتويها . إنها سخرية من الواقع ، ذلك الواقع المعيش ، فى جانبه المادى والمعنوى ، إنه واقع الإنسان المصرى، بكل ما تحمله هذه الكلمة من مضامين إنسانية ، تجسد مشكلاته وقضاياه، حياته وسلوك، بوصفه كائناً يتعامل مع الآخرين ويتعايش معهم.

فالسخرية هنا نوع من التهكم الجارح ، يصل معها الشاعر إلى أقصى درجات القسوة والانحطاط ، فيمن يتهكم بهم ، وبمن يسخر منهم ،

إنها نوع من الهجاء الساخر ، والسباب المباشر ، يوجهه الشاعر إلى شعبه المتكاسل ، الخمول ، المتواكل ، الذى نأت به السبل ، وتفرقت به الأهواء .

إنها نوع من النقد الهادف ، يسوقه الشاعر فى مشكلة ما ، يعرض لها

(١) الفكاهة فى الأدب أصولها وأنواعها جـ١ مكتبة نهضة مصر بالفجالة (د . ت) ص ٧٢ .

ويحقر من شأنها .

إن هذا اللون من التهكم ، ليس غرضه الإضحاك كما عهدنا ، بل غرضه الحزن والإشفاق .

ومن هنا فإن السخرية عند حافظ إبراهيم ، هى لون من الهجاء الجماعى، يصوبه الشاعر إلى أبناء أمته ، وكأنها سهام قاتلة ، وإن سلك فى ذلك مسالك ودروباً شتى . «لأن العيوب الاجتماعية نوع من التصلب والجمود والتخلص من مجاراة المجتمع ، ومسايرة المثل الأعلى ، ولا سبيل أجدى من التهكم ، فى تقويم الاعوجاج وعلاج أمراضه ، والعمل على المرونة فى النفس والطبع والأخلاق والأعمال . إن التهكم لون من السخرية المتفلسفة ، أو الفلسفة الساخرة ، ومن هنا كان التهكم الاجتماعى صورة من نظرة صاحبه إلى الحياة ، وإلى الأحياء من مزاجه وتفكيره ، وهو فى الوقت نفسه صورة للمجتمع الذى يتهكم به الساخر»(١)

ومن ثم يخرجنا أدب السخرية عند الشاعر ، من باب «الفكاهة والتفكه» وإن كان الضحك ظاهرة جماعية ، كما يقول هنرى برجسون . فبينما يرى برجسون أن «التراجيديا» لا تمثل إلا جانباً فردياً ذاتياً محضاً ، يرى أن «الكوميديا» تشغل جانباً عاماً تشترك فيه الجماعة كلها ويعبر عنها ، إذ هى تهتم بقضاياها ومشاكلها ، ومعالجتها - أحياناً - بهذا السخر الجماعى. » (٢)

غير أن السخرية عند شاعر النيل تتسم أيضاً بالجماعية والشمول ، وتنأى عن الفردية والذاتية ، وإن وجهت لأفراد بعينهم وسخرت منهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٠ .

(٢) الضحك : ص ٩٢ ، ٩٣ .

وبهذا تشعبت مجالاتها فى شعره ، حتى تجاوزت حدود هذا المعنى، فخرجت من نطاقها الضيق إلى عالم أرحب ، تمثل فيما يعيشه الناس ، وفيما يأملون ، ومن ثم عبرت عن القضايا الوطنية والاجتماعية التى عاصرها الشعب المصرى فى عهد حافظ إبراهيم ، فجاءت فى تضاعيف أشعاره مدللة على حسن النوايا ، وسلامة المقصد ، ولهذا كانت السخرية فى شعره ذات وظيفة وغاية ، بل غايات سامية ، وإن غاص بها - أحياناً - إلى القاع ، غير أنها شحذت من همم المصريين ، وبعثت فى نفوسهم الحمية والثورة ، التى كانت قد خمدت ، وخفت ضوؤها مرحلة بعد أخرى ، لترن فى نفوس الأجيال وآذانهم ، بعد أن تجردهم من ستار الغفلة والضياع ، الذى حال بينهم وبين أهدافهم زمناً طويلاً .

إنه شاعر الشعب ، وقد غنى له الشعب ، ومازال يصدح بتلك الكلمات، التى تعبر عن عزة المصريين جميعاً .

وقفَ الخلقُ ينظرونَ جميعاً كيف أبنى قواعدَ المجد وحدى
وبناةُ الأهرامِ فى سالف الدهر كفَوْنى الكلامَ عندَ التحدى [1]

ثم يقول فى ذات القصيدة ، مجسداً شعور أمته :

أمِنَ العدل أنهم يردون الـ ماء صفواً وأن يكدَّرَ وِرْدِى
أمِنَ العدل أنهم يُطلقونَ الـ أسدَ منهم وأن تقيَّدَ أسدى[2]

بل هناك من جعله شاعر الثورة ، ونحن لا نقصد هنا ثورة ١٩١٩ ، التى عاصرها الشاعر وعبر عنها ، وإنما نقصد بذلك ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، التى فجرها الزعيم الخالد جمال عبد الناصر مع أبناء جيله [3] تلك الأجيال

(١) الديوان : جـ ٢ ص ٨٩ .
(٢) الديوان : جـ٢ ص ٨٩.
(٣) بلابل من الشرق : ص ١٦٦ .

التى تشربت سلافة الوطنية والثورية من شعر حافظ ، كما تشرب هو مبادئها من أشعار أستاذه ، الشاعر محمود سامى البارودى [1]، صاحب النداء المتقدم :

فيا قومُ هبوا إنما العمرُ فرصةٌ وفى الدهر طرقٌ جـمـةٌ ومنافعُ
أصبراً على مسِّ الهوانِ وأنتمُ عديدُ الحصى إنى إلى الله راجعُ
وكيف ترونَ الذلَّ دار إقامةٍ وذلك فضلُ الله فى الأرض واسعُ [2]

لقد تشربت هذه الأجيال وارتوت من ينابيع شعر حافظ إبراهيم ، فقد عرفته عن قرب ، فى بواكير حياتها المتطلعة ، المشرئبة إلى بناء أمتها وشعبها .

يقول صالح جودت : «ومما لاشك فيه ، أن شاعر النيل ، قد رسم بشعره الخطوط العريضة ، التى آمنت بها ثورة يوليو ٥٢ ، قبل قيام هذه الثورة بنصف قرن من الزمان [3]

لهذا نحن نغفر للشاعر ما صدر عنه من سخرية وتهكم ، يصلان إلى حد الإهانة للشعب المصرى ، غير أننا نعتبره نوعاً من الحمية والثورية والتطلع ، فقد كان الشاعر ذا غيرة وقلق على أمته ، يسعى إلى التغيير ، ويتمنى لها النهوض والارتقاء والسيادة ؛ وكان يرى أنها تملكها حقاً لا ادعاءً .

ومن ثم دارت السخرية فى شعر حافظ على محاور متعددة :

- السخرية من المحتل ومن يدورون فى فلكه .

---

(١) ولد البارودى سنة ١٨٣٩ ، وتوفى سنة ١٩٠٤ .

(٢) ديوان البارودى : جـ٢ المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٣ . ص ١٨٦ .

(٣) بلابل من الشرق : ص ١٦٧ .

- السخرية من الحاكم .

- السخرية من الخمول والكسل والتراخى .

- السخرية من الجمود والتخلف .

- السخرية من الكذب والنفاق .

- السخرية من الجهل والبدع والخرافات .

- السخرية من الترف والبذخ والثراء الفاحش لدى بعض الطبقات بينما باقى الشعب لايجد الفتات .

- السخرية من الضعف والاستكانة وعدم الثورة .

ولقد تبلور ذلك كله ، من خلال مفاهيم جديدة «للنقد الاجتماعى» عند الشاعر ، انبثق من أسس ومعايير ، تؤكد أنه ليس من قبل الصدفة ، أو نتيجة لحدث طارئ ، أو رؤية وقتية ارتآها ، وإنما دل على رسوخ هذه الرؤية وتأصيلها فى نفسه ، متزامنة مع بعضها البعض ، فى شعره ونثره على السواء ، بل فى كثير من فكاهاته أيضاً . ذلك ما يؤكده الشاعر فى «ليالى سطيح» [1] الذى سار فيه على نهج المقامة العربية ، مقتفياً أسلوب المويلحى [2] ، وطريقته ، فى نقده لمجتمع عصره ، فيقول فى النيل .

ولبثت اتفيأ من ظلاله ، وأتأمل فى حسن أشكاله . وإنى لكذلك إذ سطعت ريح كريهة ، انهزم أمامها النسيم ، وانقبض لها صدر الجو ، وتعبس بها وجه النهر ، فعلقت أنفاسى ، ولكن بعد أن نالنى منها ماصدع الرأس ، وغشى البصر ، ولما أفقت من هذه الغشية ، وانجلت تلك الغاشية ، نظرت

---

(١) ليالى سطيح : مطبعة محمد مطر بالحمزاوى بمصر (د . ت) ص ٣ ، ٤ .

(٢) راجـــع : حديث عيسى بن هشام : دار الشعب - القاهرة (د . ت) .

فإذا أصل البلاء جيفة فوق وجه الماء ، فغاظنى ماأرى ، وهاجنى ماأشم ، وقلت أخاطب النيل :

ويحك إلى متى يسع حلمك جهل هذه الأمة المكسال ، وإلى كم تحسن إليها وتسيء إليك ، وأمعنت فى العقوق ، فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون ، ثم أمعنت فى العقوق ، فصيرتك مقبرة للجيف ، لتصبح بذلك مجرى البلاء ، ومستودعاً للوباء ، سبحانك اللهم هذه زمزم على ملوحتها ، قد عزت بجوار بيتك القديم ، فتهادى بمائها القصاد ، وحملوه إلى أقصى البلاد ، وحرص أهلها على عينها حرص المرء على عينه ، وهذا النيل على عذوبته قد ذل بجوار قوم أهانوه ، ولو كان عند غيرهم لعبدوه ، وتالله لو جرى فى غير مصر لبنوا عليه أسواراً من النفوس ، وأقاموا عليها حرساً من الضمائر ، أف لتلك الأمة ، جهلت قدر محببها ، ولم تعلم أن من مجراه تجرى عليها هذه الأرزاق ، ومن حمرة مائه تخضر تلك الأوراق .

ثم يضيف:أف لها ، ما أقل شكرانها ، وأكثر كفرانها ، ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه ، فلا يزال يكيد له ، حتى يبلغ منه ، ويكتب فيها الكاتب ، فينبرى له سفيهها ، فلا يفتأ ينبح عليه ، حتى ينشب فيه نابه ، ويفسد عليه كتابه ، ويشعر فيها الشاعر ، فيحمل عليه جاهلها ، فلا ينفك عنه ، حتى يغلبه على أمره ، ويقهره على شعره .

يارب أخرجنى إلى دار الرضا   عجلاً فهذا عالم منحوس

ظلوا كدائرةٍ تحولَ بعضُها   عن بعضها فجميعُها معكوس

والخلاصة : إن حافظ إبراهيم ، قد خاض تلك الدروب جميعها ، محارباً إياها كأشد ما تكون الحرب ، ساخراً منها ، هاجياً أسبابها ومسببيها .



الفصـل الأول

السخرية من السلطة

أ ـ السخريـــة مـــن المحتـــل.

ب ـ السخريـــة مـــن الحكام.

السخرية من السلطة

١ - السخرية من المحتل :

لقد مرت الثورة العرابيـة فى حياة الناس سريعـاً ، وكأنهـا لم تكن ، فـعـادوا إلى يأسـهم أبلغ مـا يكون اليـأس ، وإلى انطوائهم أشـد مـايكون الانطواء ، ينظرون من حولهم دون اكتراث ، وكأن الأمر لايعنيهم فى شىء . ولم يكن ينتظر ممن هذه حالهم إلا الاستسلام المطلق ، وإلا الاسراع لاستقبال الخديوى الظافر عند عودته للقاهرة ، بمثل ما استقبلوا عرابى[1] الظافر من قبل ، تابعوا الثوار ، مبهورين بجرأتهم ، مأخوذين بصنيعهم الذى لم يكن يخطر لأحد ببال ، فلما انهزموا تركوهم لمصيرهم» [2]

ترك ذلك كله شيئاً من المهانة والضعة فى نفوس المصريين ، فهب نفر منهم يبعثون الأمل فى النفوس ، ويقفون للمحتل بالمرصاد ، وكان شاعر النيل على قمة هؤلاء جميعاً .

ومن ثم حفلت قصائده بسيل جارف من الثورة والتنديد ، رغم ما أخذ عليه أحياناً من التقوقع ، أو المهادنة .

والحق أن تلك الإشارات فى شعر حافظ - إذا قيست بما أبدعه فى هذا الجانب - تعد شيئاً لا يعول عليه .

إنها هنات لا تأخذ كثيراً من قيمة الشعر أو الشاعر ، ولا تحط من قدره، فلم يدع مناسبة تمر إلا وله جانب فيها ، سواء اتبع فى ذلك شيئاً من

---

(١) هو الزعيم أحمد عرابى (١٨٤١ - ١٩١١)

(٢) د . محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، الطبعة الثالثة - مكتبة الآداب - القاهرة ، ١٩٨٠ . ص ٢٣٠ .

التخفى والموارة ، أم كان واضحاً سافراً ، ففى شعره الاجتماعى نجد ذلك الأثر ، وفى شعره السياسى أيضاً ، وحينما يتوجه إلى محاربة الفرقة والتحزب بين أبناء الشعب ، نجد ذلك .

لهذا حول حافظ الشعر إلى قضيته الأولى ، وإلى مايجب أن يشارك به فى معركة الحياة ، أديباً ملتزماً ، كأشد ما يكون الالتزام ، فالالتزام هنا أمر ينبع من ضمير الكاتب الحى ، يشعر بما يشعر به مجتمعه ، يئن لأناته ، ويفرح لأفراحه ، ويحزن لحزنه وعثراته ، ويتطلع لآماله وطموحاته ، وتلك وظيفة الأدب ودور الأديب ، الذى يختلف من عصر إلى عصر ومن أديب إلى آخر ، باختلاف الظروف والغايات .

ولهذا رأينا أسمى الأدوار ، وأنبل الغايات ، قد تحققت فى شعر حافظ إبراهيم ، فى أنه «نقد للحياة» فلم يكن حافظ ذلك الشاعر الهائم فى سماوات الخيال والعاطفة ، بينما أمته مكبلة بالقيود والأغلال ، تعيش عصراً من العبودية والتخلف ، بل من المصادفات الغريبة ، أن ديوانه يكاد يخلو من هذا الجانب العاطفى ، وكأنما خلق لتلك الغاية وحدها .

ومن ثم لم نتفق مع الأستاذ أحمد أمين ، الذى يرى أن حافظ كان ينقصه قوة الخيال ، فلم يتجه إلى فنون الشعر الأخرى [١] خلال عمله بدار الكتب . [٢]

ومن أولى الأحداث التى ألهبت روح الوطنية فى مصر الحديثة ، (حادثة دنشواى) الشهيرة ، وإن كان موقف الشعراء منها ، قد اختلف مداً وجزراً ، فقد كان حافظ فى مقدمة المعبرين عن أحداثها .

---

(١) المقدمة : ص ٣٦ .

(٢) عين حافظ بدار الكتب من سنة ١٩١١ ، حتى خروجه على المعاش فى ١٩٣٢/٢/٤ ، أى قبل وفاته بنحو أربعة أشهر ونصف .

يقول حافظ - عند استقباله «السير غورست» المعتمد البريطانى الجديد، الذى خلف العنيد «كرومر» على أثر هذه الحادثة ، التى كانت سبباً رئيسياً فى عودته إلى بلاده - قصيدة يبثها آلام المصريين وأحزانهم يبدأها بقوله :

بناتُ الشعرِ بالنَّفحات جودى   فهذا يومُ شاعرِك المجيدِ[1]

ومع ذلك ، لم ينس الشاعر ، أن يسخر من شعبه ، بعد أن يرميه بسهام حادة ، يومئ بها الى الضعف والخور والاستكانة .

وعلى الرغم من تفاوت أبيات هذه القصيدة ، فيما يشبه المدح للإنجليز، والذم لأقرانه المصريين ، إلا أن ذلك كان مدحاً يحدوه كثير من التهكم والنفور والاشمئزاز ، سيقا فى هذا الثوب الرقيع ، المتعدد الألوان والنقوش، ظهر به حافظ ، وأخذ كثيراً من هيبته ، بوصفه شاعراً وطنياً . غير أن حافظ يبين عن هدفه ، الذى لايقبل المراوغة أو الاختلاط فيقول:

فما أنا واقفٌ برسومِ دار   أسائلها ولا كَلِفٌ برُودِ
ولا مستنزلٌ هبةً بمدحٍ   ولا مستنجزٌ حُرَّ الوعودِ
ولكنىَّ وقفت أنوحُ نوْحاً   على قومى وأهتفُ بالنشيدِ[2]

إن الشاعر هنا لم يطرب بطلب ذاتى عاطفى ، وإنما وقف باكياً نائحاً ، نادباً شعبه المستكين . ثم يصل التهكم إلى مداه ، عندما يسخر الشاعر من ذل القهر والعبودية ، فى أبيات من الشعر ، رسمت صورة قاسية حزينة، رانت على قلب الإنسان المصرى ، بعد أن طبعته بالجبن والتخاذل، فيقول :

---

(١) الديوان : جـ٢ ص ٣١ .

(٢) نفسه والصفحه .

قَتيلُ الشمسِ أورَثَنا حياةً ... وأيْقَظَ هاجعَ القومِ الرُّقُودِ
فَلَيْتَ (كرومراً) قد دامَ فينا ... يُطوِّقُ بالسلاسل كلَّ جيدِ
ويُتْحفُ (مصرَ) آناً بعد آنٍ ... بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ
لننزعَ هذه الأكفانَ عنا ... ونُبعثُ فى العوالم من جديدِ[1]

فى هذه الأبيات ، يتبوأ التهكم فى نفس حافظ جانباً مظلماً كئيباً ، أظهرته الأضداد ، وأبانت عنه المقارنات ، بعد أن أبرزها الشاعر سافرة عارية من كل زيف .

ومع صعوبة هذه المشاهد ، إلا أنها باتت باعثاً إلى الانتقال والتجاوز ، متخطية بذلك مرحلة الموات والتيه ، التى حالت بين المصرى ووجوده الحقيقى. غير أنها تبلورت فى صورتين :

إحداهما : سوداوية حزنية ، يمتزج فيها القتل والموت والأكفان ، بالذل والقهر والأغلال .

أما الصورة الأخرى : فإنها صورة ضمنية ، بثها الشاعر آماله وآحلامه وأحزانه ، تجسدت فى البعث واليقظة والانتقال ، إلى واقع مثالى ، لاشك كان لهذه الصورة - رغم بشاعتها - الفضل فى إبرازه .

وعلى الرغم من هذا القول الجارح ، الذى يحمل أكثر من دلالة ، ويفجر أكثر من قضية ، تبدو فى وصف المصرى بتلك الصفات ، إلا أنه يعبر عن أقصى طاقات الثورة ، فى نفس الشاعر ، ونفوس الآخرين .

ولهذا "بلغ السيل الزبى" فى نفس حافظ ، ففاضت قريحته بتلك الأنّات فى سيل من القصائد ، وإن توسلت بهذه الوسائل ، وتسلقت أبشع الدروب،

---

(١) الديوان : جـ ٢ ص ٣٤ .

«وهو فى تلك القصائد يندد بالاحتلال ، وينشر فظائعه ، مرة بالسخرية ، ومرة بغير السخرية» [1] حتى يصل إلى الهدف المنشود .

كان حافظ مختلطاً بطبقات الشعب المصرى المختلفة ، فانطبعت حياتها ومشاعرها جميعا فى نفسه ، وأحس آلامها وآمالها السياسية ، وما تتعطش إليه من الاستقلال والحرية إحساساً عميقاً ، وكانت الحوادث لاتزال تُزكى هذا الإحساس فى فؤاده ، وكانت حادثة دنشواى أهم حادثة دفعته إلى نضال المحتل ونزاله ، ومازال تحت لواء مصطفى كامل [2] يرمى "كرومر" بقذائف أبياته ، حتى استقال من منصبه ، فصاح من أعماقه بهذه الأبيات[3]

لقد صور الشاعر - صادقاً - حالة التباطؤ والخنوع ، التى طبع الناس بطابعها فى تلك السنوات ، ومن ثم ، أضحى شعره زاداً جديداً ، وبعثاً حقيقياً فى نفوس المصريين الخامدة ، كى تهب من رقدتها ، وتفيق من غفوتها .

لهذا جاء البيت الأخير صورة واقعية ، لحالة الموات الجسدى والنفسى ، وهى صورة (كاريكاتورية) استوفت معالمها النفسية ، والاجتماعية ، والوطنية ، بل والإنسانية . نفسية : بمالها من تصوير حقيقى ، يدل على الخضوع والمهانة التى طبعت فى نفوس أبناء الشعب .

إجتماعية : بوصفها قضية عامة ، تجسد خمول الشعب المصرى وتراجعه فى تلك الحقبة .

---

(١) د . أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث فى مصر ، ط خامسة - دار المعارف ١٩٨٧ ص ١٢٦ .

(٢) ولد الزعيم مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، وتوفى سنة ١٩٠٨ .

(٣) فصول فى الشعر ونقده ص ٣٥٥ .

وطنية : تلهب شعور الناس ، وتبعث فيهم روح الثورة والإباء .

هذا ماأراد أن يبرزه شاعر النيل ، فنقله نقلاً أميناً ، كما أحسه هو ، وكأنه ينقله لنا "بكاميرا" مفنداً ، ومجسداً ، ومحدداً ، فى تلك الرؤية (الفوتو/ نفسية) إذا صح التعبير .

ولم يزل شاعرنا يوجه تلك القذائف إلى أمته ، مرة بعد مرة ، فيقول :

وأكبرُ ظنى أنَّ يومَ جلائهم	ويومَ نُشُور الخلق مقترنانِ
إذا غاضتْ الأمواهُ من كل مُزْبِدٍ	وخرَّتْ بروجُ الرجم للحدثانِ
وعاد زمانُ السمهرىِّ وربِّه	وحُكِّمَ فى الهيجاءِ كلُّ يمانى
هناك اذكرا [1] يومَ الجلاءِ ونَبِّهَا	نياماً عليهم يندبُ الهرمانِ[2]

إن الشاعر هنا يصرخ فى وجه شعبه ، متهكماً من الوعود ، التى قطعها المستعمر على نفسه ، بالجلاء والاستقلال ، بينما هى عهود زائفة ، ولذا يؤكد أن ذلك لا يكون إلا إذا قامت الساعة أو عاد الزمن إلى الوراء ، زمن القتال بالرماح والسيوف ، غير أن الشاعر ، لم يفارقه هذا الأسلوب الساخر ، من الشعب الغافل ، فنقل لنا صورة استقاها من البيئة ، جعل فيها الهرمين يبكيان ، بل يعددان ويندبان ، نيام المصريين ، وخضوعهم للمحتل ، ورغم المباشرة التى ساقها الشاعر فى تلك الصورة ، إلا أننا نقف على واقع حقيقى مرئى، تجسد فى المشاركة التى أظهرها فى تلك الأبيات.
«لقد عُنفت الثورة بنفس الجندى القديم ، فاقتحم بقلمه وأسنَّة أبياته ميادين السياسة ، والإصلاح الاجتماعى ، فى جرأة وحماسة بالغة ، وكل من يقرأه فى تلك السنوات من حياته ، لا يملك إلا أن يطأطئ الرأس له إجلالا ، فقد

---

(١) يخاطب الشاعر هنا العلمين : المصرى والانجليزى فى مدينة الخرطوم .

(٢) الديوان جـ٢ ص ٦ .

أصبح أقوى صوت شعرىّ للشعب وأضخمه ، يصرخ فى وجه المستعمر ، يريد أن يزلزل به الأرض زلزالا ، ويصرخ فى أمته يريد أن يدفعها إلى الثورة دفعاً ، ولكن أمته لابد لها من سلاح ، ولا بد أن تتسلح للمستعمر بالعلم وبالخلق القوى ، ولابد أن تتخلص من كل مايفتّ فى عضدها من نقائص ومعايب ، فليصرخ حافظ هنا وهناك ، حتى يستنهض همة شعبه ، وحتى يحفزه إلى مايريد من نهضة قوية . (١)

لقد وصل الشاعر من خلال هذا الأسلوب إلى مرحلة ، قلما نجدها عند غيره ، وإن سلك فى ذلك درباً من التعابير ، تأباه النفس المصرية وتستهجنه، استمع إليه يقول :

أيها القائمونَ بالأمر فينا	هل نسيتُمْ ولاءَنا والودادا
خفِّضوا جيشكم وناموا هنيئاً	وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزَتكم ذاتُ طوقٍ	بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحنُ والحمامُ سواءٌ	لم تغادر أطواقُنا الأجيادا(٢)

فى هذه الأبيات تصطدم أحاسيسنا ، وتنزوى وجوهنا بعيداً ، حتى تكاد الرؤية تضيع من أمامنا ، لهذه الصورة النكراء لإنسان ذلك العصر كما صورته الأبيات .

ورغم موقف الشاعر من الإنجليز ، وحسه الوطنى ، الذى لامراء فيه ، فإننا نرى مشهداً من المهانة والإذلال ، ظهر به شاعر النيل فى هذه القصيدة، وما كان له أن يفعل .

لقد رحل الإنجليز فى غير رجعة ، ورحل حافظ عن عالمنا ، وما زالت

(١) فصول فى الشعر ونقده : ص ٣٥٤ .
(٢) الديوان : جـ ص ٢٠ .

هذه الأشعار شاهدة ، كما أنها لازالت تلطخ وجه الأجيال كلما طالعتها .

والسؤال الذى يطرح نفسه ، إلى أى حد وصل الشاعر فى التعبير عن روح ذلك العصر ؟ وهل أصاب أم كان مخطئاً ، وهل نحن مع أو ضد شاعر النيل ؟ غير أننا - وإن كنا لا نوافقه فى ذلك - لم نعش ذلك المناخ الذى عايشه ، وكابده عن قرب .

ثم بقراءة ثانية للقصيدة ، وأسباب نتلمسها ، نجد أن موقف حافظ الوطنى - أبداً - لم يهتز ، ولم تشبه شائبة ، وأن هذا الذى نقرأه ، إنما هو من صميم الشعر الوطنى عند شاعر النيل ، وإن مزج بالسخرية والتهكم ، وجاء على تلك الصورة .

ويضيف الاستاذ عمر الدسوقى : «وكان حافظ فى هذه القصيدة ، وقد ابتدأ يجهر بمعاداته للإنجليز ، كمن يتحسس طريقاً لم يألفه ، تراه حذراً تارة، قوياً تارة أخرى ، معاتباً فى لطف أحياناً ، متهكماً أحياناً .

ثم يقول معلقاً على مطلعها : فأى تخاذل تراه فى هذا البيت ، وأى ضعف ؟؟ وهل هذا موقف عتاب ، ومذاكرة الود ، ولم يبق هؤلاء وداً يتذكر؟؟ وقد يشفع له ما أتى فى قصيدته بعد ذلك من سخرية لاذعة ، ومن قسوة وسخرية بمصر وأهلها ، وأنها أمة ضعيفة مستخذية، ولا تجيد إلا الكلام والتحسر والبكاء [1]

لم يكن غريباً ما نشاهده فى أسلوب حافظ «التهكمى» وإن سلك فى ذلك درباً من اللين والوداعة ، فلربما «تأثر حافظ فى رأيه فى الإنجليز ، ومخاطبتهم خطاباً ليناً ، بأستاذه الشيخ محمد عبده [2] غير أن موقف

---

(١) فى الأدب الحديث جـ ٢ : دار الفكر العربى - القاهرة . (د ت) ص ١١٦ .

(٢) السابق والصفحة .

حافظ كان من القوة والشجاعة ، مالا نجده عند غيره ، ألم نر واحداً من أبناء مصر يدعى (إبراهيم بك الهلباوى) الذى كان مدعياً عمومياً للمحكمة، التى حكمت على بنى جلدته فى دنشواى ، ممالئاً للإنجليز ، على حساب وطنه وذويه ؟!

ذلك الذى يقول فيه حافظ ، فى ذات القصيدة :

لا جرى النيلُ فى نواحيكِ يا(مصـ	ـرُ) ولا جادكِ الحيا حيث جادا
أنتِ أنبتِّ ذلك النبتَ يا (مصـ	ـرُ) فأضحى عليك شوكاً قتادا
أنت أنبتِّ ناعقاً قام (بالأمـ	س) فأدمى القلوبَ والأكبادا
إيه يامِدْرَهَ القضاءِ ويا من	ساد فى غفلةِ الزمان وشادا[1]
أنت جلادُنا فلا تنسَ أنّا	قد لبسنا على يديك الحدادا[2]

وإذا كان البعض يرى ، أن حافظ قد تجاوز كثيراً فى نقده وتهكمه على هذا المدعى ، فإن ذلك يحسب لحافظ لا عليه . إذ يقول حسن كامل الصيرفى : "تناول حافظ «المدعى العمومى» فى هذه القضية ، وهو مصرى، بالنقد الجارح الشديد ، والتهكم اللاذع المرير . وكان المغتصبون الجناة ، أولى بمثل هذه القسوة والشدة فى النقد والتجريح ، لأن تهكمه فى أبياته التى قالها فيهم ، ليِّنٌ وادعٌ ، بجانب قسوته على "المدعى العمومى" المصرى [3] غير أننا نختلف مع رأى الصيرفى ونعارضه .

لقد «ظل حافظ إبراهيم طوال حياته ، يرمى الإنجليز الغاشمين بسهام أبياته المُصيبة ، زائداً عن الحرية ، ومصوراً آلام الشعب وآماله ، وما يرنو

---

(١) المـدره : خطيب القوم والمتكلم عنهم .

(٢) الديـوان : جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) حافـظ وشوقى : ص ٢٣ .

إليه من حياة عزيزة كريمة ، وكأنما اختارته ربة الشعر ، ليدافع عن وطنه فى الحقبة السالفة المظلمة من تاريخه ، وقد جمعت له كل الأسباب ، ليستشعر المحنة ، وليكون صوت مصر فى تلك الأيام البائسة ، والهاتف بخواطر روحها الموجَع المحزون . "(1)

إن الشاعر ، وإن كان له الحق فى تغيير الواقع ، ورسم صورته الجديدة، بعد إعادة صياغتها وتشكيلها ، إلا أنه يصور واقعاً حقيقياً ، لا وهماً وخيالاً فيقول :

أكرمونا بأرضنا حيث كنتم	إنما يكرم الجوادُ الجوادا
إن عشرين حجةً بعد خمسٍ	علمتنا السكونَ مهما تمادى
أمةُ النيلِ أكبرتْ أن تُعادِى	من رماها وأشفقت أن تُعادَى
ليس فيها إلا كلامٌ وإلا	حسرةٌ بعد حسرةٍ تتهادى(2)

فى هذه الأبيات يطالعنا وجه آخر من وجوه التهكم والسخرية ، الذى ابتدعه شاعر النيل فى هذا الاتجاه ، سار فيه على محورين لم يخطئهما ، تكررا فى كثير قصائده : السخرية والتهكم من المحتل ، ثم السخرية والتهكم من الشعب .

ومع ذلك فإننا نلمح بين لحظة وأخرى ، ضوءاً صارخاً من الثورية وعدم الخضوع ، ولم يكن ذلك الضوء الصارخ هو كل ما فى نفس حافظ ، حتى لو كان ضوءاً محدداً بمعايير ، لايستطيع الشاعر - فى كل الأحوال - أن يتجاوزها أو يتخطاها ، ولسنا مع مايقوله بعضهم : «وما من شك فى أن بؤس حافظ وخوفه ، قد خلقا منه نفساً مريضة ، تتوجس الشر من كل

(2) السخرية فى أدب المازنى : ص 35 .
(3) الديوان : جـ 2 ص 22 .

شيء، ولهذا كان يصطنع المداهنة والرياء ، ويبلغ في ذلك مدى تبرأ منه الوطنية والنفس الأبية .» [1]

وليس غريباً أن تختلف الآراء حول شخصية حافظ أو شعره ، فلكلٍ طريقته التي ارتضاها لنفسه ، سواء كان ذلك على المستوى الشخصي، أو المستوى الإبداعي .

وعلى هذا «فإن السخرية هي فن إبراز الحقائق المتناقضة ، والأفكار السلبية ، في صورة تغري بمقاومتها والرد عليها ، وإيقاف مفعولها ، من غير أن يلجأ الساخر إلى الهجوم المباشر ، أو يبدو في موقف يكون فيه هدفاً للانتقام . وهي كذلك الدعوة إلى الثورة من غير هتافات عدائية ، ومن غير تنظيمات يدان أصحابها ، فكأنها تهيئ النفوس للثورة على الظلم وعلى الانحراف ، وتفتح العيون على النقائص التي يحاول أصحابها أن يبعدوها عن مواطن الضوء .» [2] وذلك نهج حافظ وطريقته المثلى .

ومن الطبيعي ، بل والمنطقي أيضاً ، أن يقوِّم شعر حافظ إبراهيم من هذا المنظور وحده ، بغض النظر عن الطريقة التي ابتدعها في التعبير ، والأسلوب الذي انتهجه في التصوير ، فالعبرة هنا بما يدور في نفس الشاعر، وفيما يريد أن يصل إليه ، أو ما يرغب في توصيله إلى الناس .

ولنستمع إلى أبيات لشاعر النيل يستقبل بها «اللورد كرومر) عند عودته من مصيفه ، إثر حادثة دنشواي . فيقول :

(قصر الدوبارة) هل أتاك حديثنا ... فالشرق ريع له وضج المغرب

أهلاً بساكنك الكريم ومرحباً ... بعد التحية إنني أتعذب [3]

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل : ص ١٧٤ .

(٢) السخرية في أدب المازني : ص ٣٥ .

(٣) الديوان : جـ ٢ ص ٢٢ .

إن القراءة الثانية للبيت الثانى ، لاتجعلنا ننفر من الشاعر ،أو نذدريه ، فالبيت لم يحمل مدحاً أو ثناءً كما هو ظاهر ، بل يحمل تهكماً وسخراً سيقاً فى هذا القالب . انظر إلى أبيات آخرى لحافظ ، يقول فيها :

علمتنا معنى الحياةِ فمالنا لا نشرئبُ لها ومالك تغضبُ
أنقمت منا أن نحسَّ وإنما هذا الذى تدعو إليه وتندبُ
أنت الذى يُعزى إليه صلاحُنا فيما تقرِّره لديك وتكتُبُ[1]

فأى صلاح يعزى إلى الإنجليز ، ناهبى مصر ، والواقفين حجر عثرة فى سبيل نهضتها وتقدمها ؟!!!

ثم انظر إلى بيت آخر من صميم هذا القول :

إن ضاقَ صدرُ النيل عما هاله يومَ الحَمام فإن صدرك أرحبُ[2]

ثم قوله :

رفقاً عميدَ الدولتين بأمةٍ ليستْ بغير ولائها تتعذبُ[3]

فأى ولاء هذا ، وأى عذاب تتعذبه هذه الأمة المكلومة ؟ !!وهل يصدق ذلك القول على شعر حافظ الوطنى ؟ !!ذلك ما يتناقض مع أبياته وقصائده الأخرى ، حتى فى «كرومر» نفسه ، بل نستطيع أن نقف على بعض مما يختفى فى نفس حافظ ، ذلك الجانب الخبئ ، الذى يبدو متناقضاً، يلخصه البيت قبل الأخير من ذات القصيدة :

وإذا سُئلتَ عن الكنانةِ قلْ لهم: هى أمةٌ تلهو وشعبٌ يلعبُ[4]

---

(١) الديوان : جـ ٢ ص ٢٣

(٢) الديوان : جـ ٢ ص ٢٣ .

(٣) الديوان : جـ ٢ ص ٢٣ .

(٤) الديوان : جـ ٢ ص ٢٥ .

فماذا يعنى الشاعر بتلك الكلمات المهينة لنفسية هذا الشعب ؟! وإذا كانت الرؤية قد تختلط علينا - أحيانا - نظراً لما نشاهده فى شعره ، الذى يحتمل وجوهاً متباينة ، وألواناً متناقضة ، بين المدح تارة ، والتخاذل تارة أخرى ، والثورة فى جانب ، ومهادنة الإنجليز فى جانب ثانى ، إلا أننا نستطيع أن نرد ذلك جميعه إلى شخصيته وضميره الوطنى ، الذى عرف به ، بين شعراء عصره وأعلامه .

يقول عمر الدسوقى فى تعليقه على قصائد الشاعر الثلاث فى الزعيم مصطفى كامل : «وظهر حافظ بأنه شاعر الوطنية الحقة ، وبأنه لايعرف مداجاة الإنجليز ولا موادعتهم ، وعبر كما فعل فى قصيدته الأولى عن عاطفة كل مصرى وشعوره . أما قصيدته الثالثة التى قالها بعد مرور عام على وفاة الزعيم : فقد كانت أروع هذه القصائد ، لا من حيث تصويرها لجهاد الفقيد ودفاعه الحار عن مصر وقضيتها ، وإيقاظه قوماً ظن أعداؤهم بهم الظنون ، ورموهم بكل نقيصة ، ولكن من حيث وصفه آلام مصر وآمالها ، وشعورها إزاء الاحتلال ومصائبه . وقد أسفر حافظ عن ذات نفسه فى هذه القصيدة ، فجهر بعدائه الصارخ للإنجليز ولم يعد بعد ذلك الذى يلين القول ، ويدعو إلى المهادنة ، وهى خير مايمثل شعر حافظ السياسى ، الذى اكتسب به لقب (شاعر النيل)[1]

انظر إلى بيت من قصيدته الأولى ، يتمثل فيه أسمى مراتب الوطنية والثورية فى شعره :

فيا نيلُ إن لم تجرِ بعدَ وفاته دماً أحمراً لا كنت يا نيلُ جارياً[2]

(١) فى الأدب الحديث : جـ ٢ ص ١٢١ .

(٣) الديوان : جـ ٢ ص ١٥١ .

ثم يسوق الكاتب مثالاً آخر ، مدللاً على وطنية ذلك الشاعر ، ومقارناً إياه بشوقى ، الذى افتقد تلك الوطنية جملة ، ولا يشفع له قول بعضهم ، والتماسهم له جوانب منها ، حتى فيما بعد المنفى . !!!

فيقول : "لقد صمت شوقى عاماً كاملاً لم يقل كلمة ، وكان المنتظر بعد أن عم الأسى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وتألم لمصابها حتى الإنجليز أنفسهم ... كان من المنتظر من شوقى وأمثال شوقى أن يعبروا عن المصريين إزاء هذه الكارثة ، وأن يشعلوها ناراً مضطرمة الأوار ، متأججة السعير...."[1]

ثم يضيف : "ومما يذكر ، أن الكاتب العالمى (جورج برناردشو)[2] كتب عن هذه الحادثة فصلاً من ست عشرة صفحة فى مقدمة كتابه «جزيرة جون بول الأخرى» ولم يكتب أحد عن قضية دنشواى من الأجانب ما يضارعه فى صدق العاطفة ، والدفاع ، ومضاء الحجة ، وشدة الغيرة على المظلومين ، حتى لقد قرن (شو) فى انجلترا باسم دنشواى . »[3]

فأين أمثال شوقى ؟!! ممن تبرأ منهم الوطنية ، وتلفظهم الشعوب ، ويتنكر لهم التاريخ ؟!!! بكل ما يحمله من دلالات ، وما يرنو إليه من تطلعات ، وما يموج داخله من إرهاصات .

ويجأر حافظ بالشكوى على لسان مصر من الإحتلال الإنجليزى ، وفداحة الظلم والجبروت ، فيقول :

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبت   حواشيه حتى بات ظلماً منظما[4]

---

(١) فى الأدب الحديث : جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٢) ولد شو سنة ١٨٥٦ ، وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٢٥ ، وتوفى سنة ١٩٥٠ .

(٣) فى الأدب الحديث : جـ ٢ ص ١٠٤ .

(٤) الديـــوان : جـ٢ ص٢٥ .

إن شاعراً كحافظ لم يعرف الكلل أو الخمول ، فهو شخص دائب الحركة، دائب الشكوى ، دائب السخرية ، وكل هذا إنما يؤدى به إلى غرضه الأسمى، الذى نذر له نفسه .

يقول عبد الرحمن الرافعى : « تتجلى الروح الوطنية ويتألق نورها فى شعر حافظ ، ولقد وجدت الحركة الوطنية فى قصائده قوة تستمد منها الحماسة والصمود فى الجهاد والثورة على الاحتلال . كان شعره معيناً لاينضب من الكفاح الوطنى ، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه ، ويلهبه الزود عن حريته واستقلاله » (١)

لقد ملك الشاعر صوتاً جهورياً قوياً ، محبباً إلى نفوس الناس ، فأقبلوا عليه ، وعلى الرغم من طريقته هذه ، إلا أنهم قد تأثروا بأشعاره التى صارت أمثالاً وحكماً ، يرددها العامة من أبناء الشعب المصرى ، ويعملون بها ، ثم يتعاطفون معها ، فلم يترك شاعر النيل حادثة تمر إلا وكان مشاركاً فيها ، ونحن وإن كنا لانؤرخ لوطنية حافظ - فهذا ليس مجاله هذه الدراسة- وإنما نؤرخ لأبيات محددة من وطنيته ، جاءت فى سياق حديثنا عن السخرية والتهكم فى أشعاره ، فما بالنا لو أرخنا لهذه الجوانب المضيئة من وطنيته ؟!!

غير أننا نؤكد هنا أن شعر السخرية عند شاعر النيل ، يدخل فى نطاق الوطنية ، وصميمها .

وتشتعل نيران ثورة ١٩١٩ ، ويستغل حافظ جانباً منها ، تبدى فى مظاهرة سيدات مصر إبان تلك الثورة ، فينشئ قصيدة فى تلك المناسبة، يشبع فيها الإنجليز تهكماً وسخرية ، فيقول فى مقدمتها :

---

(١) شعراء الوطنية فى مصر - الطبعة الأولى - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤ . ص ١٠٨ .

خرج الغواني يحتججن ورحتُ أرقبُ جمعهنّهْ

ثم يسخر من جيش الاحتلال فى قوله :

وإذا بجيش مقبلٍ والخيلُ مطلقةُ الأعنّهْ
وإذا الجنودُ سيوفها قد صُوِّبت لنحورهنّهْ
وإذا المدافعُ والبنا دقُ والصوارمُ والأسنّهْ
والخيلُ والفرسانُ قد ضربت نطاقاً حولهنّهْ
والوردُ والريحانُ فى ذاك النهار سلاحُهُنّهْ
فتطاحن الجيشان سا عات تشيب لها الأجنةُ
فتضعضعَ النسوانُ والنسـ ـوانُ ليس لهنّ مُنّهْ
ثم انهزمن مشتتا تِ الشملِ نحو قصورهنّهْ
فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنّهْ
فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينهنّهْ
وأتو (بهنِدِ نبُرج) مُخْـ ـتفياً بمصر يقودهنّهْ [1]
فلذاك خافو بأسُـ ـهنَّ وأشفقوا من كيدهنّهْ [2]

وهنا يصل الشاعر بطريقته الساخرة إلى هدفه ، فيحط من الإنجليز ويهزأ من جنودهم ، وكيف واجهتهم المرأة المصرية فى بداية نهضتها الحديثة، وقد ران عليها شيء من التحدى والشموخ ، والكبرياء .

ويصف المؤرخ الوطنى عبد الرحمن الرافعى تلك الحادثة ، وكيف خرجت نساء مصر فى هذه المظاهرة، التى لم يألفها المجتمع من قبل، لتواجه غطرسة العدو بسلاحه وهجميته ، فيقول: «وقد حيًا شاعر النيل حافظ إبراهيم

(١) قائد ألمانى .

(٢) الديوان : جـ ٢ ص ٨٨ .

مظاهرات السيدات بقصيدة رائعة ، مجد فيها شعورهن وشجاعتهن ، وحمل حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن (١)

ومع ذلك ، فقد عدت هذه القصيدة من المآخذ ، التى أخذت على شاعر النيل ، لأنها قد وزعت على هيئة منشورات ، ودون أن تنسب إلى الشاعر ، وذلك مخافة البطش من هؤلاء .

ويعلق الدكتور شوقى ضيف على ذلك ، بقوله : «ولما ثارت مصر فى وجه الإنجليز سنة ١٩١٩ عادت لشاعر الشعب قواه القديمة ، فاسترد صوته، ولكن مع شئ من الحذر ، مخافة أن يحرم من وظيفته ، فقد نظم قصيدة فى مظاهرة للسيدات بتلك الثورة ، وهى تمتلئ بالسخرية من الإنجليز ، ولم ينشرها فى الملأ من الناس ، بل أعطاها للثائرين ، ليوزعوها فى منشورات غير ممضاة. » (٢)

ومهما يكن من أمر ، حول هذا الخوف أو التأرجح الذى كان ينتاب حافظ من آن لآخر ، إلا أنه لم ينل من مكانته ، بل على العكس من ذلك ، فقد أبان عن معدن الشخصية التى تقتنص الفرصة تلو الأخرى ، حتى تصب جام غضبها على جيوش الإحتلال ، القابعة فوق أرض الكنانة .

وهل يلام حافظ ، والنفى والتشريد يقفان له بالمرصاد ؟ إن مفهوم الوطنية يختلف من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى آخر ، بل إن حافظ نفسه قد حسم تلك القضية ، فأعلنها صراحة ، على الرغم من قذائفه التى شاهدناها ، فيقول :

إذا نطقتُ فقاع السجن متكئاً ... وإن سكتُ فإن النفسَ لم تطبِ(٣)

(١) انظـر: ثورة ١٩١٩ (تاريخ مصر القومى من ١٩١٤ - ١٩٢١) ط رابعة دار المعارف ، ١٩٨٧ ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٢) فصول فى الشعر ونقده : ص ٣٥٩ .

(٣) الديوان : جـ٢ ص ١١٨ .

ثم انظر إلى تهكمه وسخريته ، عندما أعتدى على زعيم الأمة المصرية، المرحوم سعد زغلول . فى محطة القاهرة سنة ١٩٢٤ ، وكان ذاهباً إلى الاسكندرية ، ومنها إلى انجلترا ، للمفاوضات مع الإنجليز :

ولأنت أمضى نبلةٍ نرمى بها ... فانفذْ وأقصدْ فالنبالُ قليلُ
النسرُ يطمعُ أن يصيدَ بأرضنا ... سنُريَهُ كيفَ يَصيدُهُ زغلولُ(١)

ومن ثم نرى إيماءة واضحة إلى الإنجليز ، الذين شبههم الشاعر بالنسر ، ونحن نعلم ما للنسر من بطش وقوة ، وما للحمام من ضعف ورقة ، لكن الشاعر قد استخدم هنا لقب الزعيم ، كى يسخر به من الاحتلال ، ويهزأ من جبروته وغروره .

وإن كان البعض يرى ، أن هذه الأبيات ، إنما جاءت على سبيل النكتة والدعابة ، ودللت على ضعف الشعر وضحالته ، فيقول : ولقد «غلبت على حافظ روح الدعابة المتأصلة فى نفسه ، فأراد أن يستثير إليه الأسماع بالنكتة ، حيث تتهيأ له إثارة النفوس ، بالوثبة الشعرية ، والإبداع الفنى ، فقال ذلك مخاطباً الزعيم ، متخذاً من لقبه مادة لخلق النكتة . (٢)

غير أن ذلك لم يكن من النكتة ، أو الدعابة فى شىء ، أو من أشعار حافظ الضعيفة !!

بل جاءت هذه الأبيات ، ضمن واحدة من أبرز قصائده ، وأقواها ، شدا بها الشاعر فى تهنئته للزعيم ، عقب تلك الحادثة ، وبلغت ثمانية وخمسين بيتاً ، من الشعر الوطنى الصميم . استمع إلى قوله :

فاوضْ ولا تخفضْ جناحَك ذلـةً ... إن العـدوَّ سـلاحه مغلولُ

(١) الديوان : جـ ١ ص ١١٠ .

(٢) حسن كامل الصيرفى : حافظ وشوقى : ص ٥٨ .

فاوضْ وأنت على المجرة جالسٌ لمقامك الإعظامُ والتبجيلُ

فاوضْ فخلفك أمةٌ قد أقسمتْ ألا تنام وفى البلاد دخيلُ[1]

وهكذا كان موقف حافظ ، بوصفه وطنياً مصرياً ، وشاعراً طليقاً ، متخذاً من أشعاره أسلحة حادة ، يجابه بها هؤلاء جميعاً .

(١) الديوان جـ١ ص ١١٠ .

٢ - السخرية من الحكام :

إن موضوع السخرية من الحاكم ليس موضوعاً جديداً أو مبتكراً، بالقياس إلى الآداب الإنسانية الأخرى ، التى ظهرت بوصفها فنوناً مستحدثة ، لم يألفها التاريخ القديم .

لقد عرف هذا النوع من الأدب فى كل العصور ، وبخاصة تلك التى شهدت فترات قاسية من الظلم والاضطهاد بين الحاكم والمحكوم . وبهذا رأينا أمثلة ناضجة فى تراثنا الإنسانى القديم ، سجلت تلك الأحداث وأرخت لهذه الفترات، بل وقفنا على كثير من صفات الحكام ، من خلال نكات عصرهم ، وسخريات شعوبهم .

ويعلق الدكتور عبد العزيز رفاعى : «وإذ تعتبر الفكاهة أصيلة فى مصر، نابعة من ينبوع البيئة الطبيعية والحضارة ، فقد بدأت تتحور فى ظل التبعية السياسية ، فكان منها فكاهات مريرة ، مليئة بسموم اللذع والتهكم والسخرية ، فقد انتقد أهل الاسكندرية البطالمة ، ولقبوا بطليموس الأول[١] بلفظ الزمار ، ويقول الشاعر اليونانى "ثيوكريتوس" ، الذى عاش فى الاسكندرية خلال القرن السادس قبل الميلاد ، عن نزعة المصريين فى ذلك : «إنهم شعب ماكر ، لاذع القول ، روحه مرحه» ، ولقد سخر المصريون من الرومان فى عهدهم، فلقبوا القيصر فسبسيان [٢] بلقب تاجر السردين ، وآخر بالنسناس المدلل الصغير .

ولقد استمرت روح الفكاهة حتى واجهت العصر الإسلامى ، فتناولها

---

(١) هو مؤسس دولة البطالمة فى مصر ، وضع أساس مكتبة الأسكندرية ، توفى سنة ٢٨٣ ق . م .

(٢) أمبراطور رومانى مات سنة ٧٩ ميلادية .

شعراء فى عهد ابن طولون [١] والإخشيد [٢] ، وقد عرفت على يد سيبويه المصرى فكاهة كبرى ، وكان له هجاء سياسى مضحك ، كان يعتمد فيه على مجاميع من الأخطاء فى الكلام ، تنبعث منها سمومه ، ويؤلف فنان مصر الشعبى الصور الساخرة ، والحكايات التى تظهر قراقوشاً [٣] غبياً أحمقاً متعسفاً، ولقد ألف السيوطى (فاشوشاً) وتبعه آخر ، فألف الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش ، ليشبع مصر ضحكاً على دولة الأيوبيين ، حتى غدا جحا رمزاً مصرياً وإن عرفته شعوب أخرى ، وكانت مصر تسخر من حكامها الأجانب بالألفاظ والأسماء والكنى ، فكافور [٤] نعت (أبو المسك) وسمى بيبرس [٥] الأجرد (ذقين) وطشتمر [٦] (حمص أخضر)[٧] .

وهكذا أصبح ذلك شيئاً مألوفاً بين المصرى وحاكمه ، ليس فى مجال الأدب والأدباء فحسب ، ولكن بين العامة من الناس ، الذين كانوا يطلقون نكاتهم وسخرياتهم على السليقة والفطرة ، وفى كثير من الأحيان لاتنسب تلك السخريات إلى قائليها .

---

(١) هو أحمد بن طولون ، صاحب الديار المصرية والشامية ، توفى سنة (٢٧٠هـ/٨٨٤م) الأعلام ١٤٠/١ .

(٢) هو محمد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية ، توفى (٣٣٤هـ / ٩٤٦م) الأعلام ١٧٤/٦ .

(٣) هو السلطان قراقوش بن عبد الله الأسدى ، أمير نشأ فى خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وناب عنه فى الديار المصرية ، وكلمة (قراقوش) بمعنى العقاب الطائر المعروف ، توفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) الأعلام ١٩٣/٥ .

(٤) كافور الإخشيدى توفى سنة (٣٥٧هـ / ٩٦٨م) الأعلام ٢١٦/٥ .

(٥) هو الظاهر بيبرس العلائى البند قدارى ، تولى سلطنة مصر والشام توفى (٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) الأعلام ٧٩/٢ .

(٦) هو الأمير طشتمر البدرى الساقى ، ولد سنة ٧٤٣هـ ، من مماليك الناصر بن قلاوون ، كان يحب أكل الحمص .

انظر : عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم مكتبة الآدب ١٩٦٢ . المجلد الأول ص ١٠٦ .

(٧) الطابع القومى للشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية - دار النهضة العربية - ١٩٧١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ . وانظر الفكاهة فى مصر ص ٢٢ وما بعدها .

ورغم قلة إبداع حافظ فى هذا الجانب - نظراً لظروف عصره - إلا أننا نلمح بعضاً منها فى هذا الباب .

فمنها مايتهكم به فى بيتين من الشعر ، تحت عنوان : (فى ملك ضعيف الرأى) لم يسمه الشاعر، فهل هو ملك مصر فى تلك الآونة؟ أم إنه رمز لكل ملك وحاكم وسلطان؟!

غير أن الملك هنا ، هو ملك يراه الشاعر رأى العين ، كما يرى حاشيته المضللة ، ذلك ما يرسمه حافظ فى هذه اللوحة الساخرة . فيقول :

لا تعجبوا فمليككم لعبتْ به ... أيدى البطانةِ وهو فى تضليل
إنىّ أراه كأنه فى رقعة الـ ... ـشطرنج أو فى قاعةِ التمثيل[1]

ورغم المباشرة الشعرية التى ساقها الشاعر فى هذين البيتين ، إلا أننا نلمح صورتين فى البيت الثانى : أولاهما: لملك أجوف ، قليل الرأى والحيلة، تتقاذفه بطانته وكأنه قطعة من الشطرنج ، مسلوب الإرادة ، لايملك من أمره شيئاً .

أما الثانية : فإنا نراها لملك مزيف ، يعرض علينا أدواراً غير حقيقية ، ولا شك أن الشاعر ، قد وصل بهذه الصورة الساخرة ، إلى مرحلة من الجرأة والمبالغة ، فأفاض فى وصفه هذا ، مدللاً على فساد الحكم والحاكم .

وليس غريباً من شاعر كحافظ ، أن يخاطب الناس بتلك الحدة ، مخبراً إياهم عن صورة هذا الملك الضليل ، الذى هو - لاشك - ملك مصر وحاكمها ، وإلا فمن يخاطب الشاعر؟!!

وتقوم الثورة فى تركيا ، سنة ١٩٠٩ ، بما يسمى (بالانقلاب العثمانى) فيُخلع السلطان عبد الحميد ، الذى ظل خليفة على المسلمين ما يربو على

(١) الديوان : جـ ١ ص ١٥٩

ثلاث وثلاثين عاماً ، ويخلفه السلطان محمد الخامس .

وهنا ينبرى شاعر النيل ، فيبدع قصيدة طويلة ، تبلغ واحداً وخمسين بيتاً فى هذا الملك المخلوع ، ساخراً تارة ، متعاطفاً تارة أخرى ، معدداً فيها مثالب هذا الخليفة ومناقبه ، وكيف زال ملكه بعد تلك السنوات الطوال فيبدأها بقوله :

لارعىَ اللهُ عهدَها من جدود ... كيف أمسيتْ يابن عبدالحميد (1)

مُشبِعَ الحوتِ مِنْ لحُومِ البَرايَا ... ومُجيعَ الجُنُودِ تحْتَ البُنُود

كنتُ أبْكِي بالأمْسِ منْكَ فمالي ... بتُّ أبكِي عليكَ (عبدَ الحميد) ؟

فَرِحَ المُسْلِمون قبلَ النَّصارَى ... فيكَ قبلَ الدُّروزِ قبلَ اليَهودِ

شَمِتُوا كلُّهمْ وليس منَ الهمـ ... ـةِ أنْ يَشْمَتَ الورَى فى طريدِ

أنتَ (عبدالحميد) والتاجُ مَعْقُو ... دٌ و (عبدُ الحميد) رَهْنَ القُيُودِ

خـالدٌ أنتَ رَغْمَ أنْفِ الليَالِي ... فى كبارِ الرجالِ أهْلِ الخُلُودِ

لكَ فى الدَّهْرِ-والكمالُ مُحالٌ- ... صَفَاتٌ ما بينَ بِيضٍ وسُودِ (2)

ثم يقول :

فثَلَلْتَ العروشُ عرشاً فعرشاً ... وصبغتَ الصعيدَ بعد الصعيد (3)

كلما نلتَ غايةً لم تنلْها ... همةُ الدهر قلتَ : هل من مزيد ؟

ضاقت الأرضُ عن مداك فأرسلـ ... ـت بطرفٍ إلى السماء عتيد

قل له : جَلَّ من له الملكُ لامـلـ ... ـكَ لغير المهيمن المعبود (4)

---

(1) ولد السلطان عبد الحميد فى 21 سبتمبر سنة 1842 م ، وولى الملك فى أغسطس سنة 1876م ، وخلع فى 27 أبريل سنة 1909م ، وتوفى فى 10 فبراير سنة 1918م .

(2) الديوان : جـ 2 ص 43 .

(3) ثلهم : أهلكم .

(4) الديوان : جـ 2 ص 45 .

وإذا كان الشاعر ، يعرض علينا صوراً ، لما كان عليه الحال فى ذلك العهد المظلم ،إلا أنه يسخر من كل ألوان الظلم ، والقهر ، والجبروت ، فى شخص عبد الحميد الطاغية .

غير أن الشاعر هنا ، ينتابه شىء من الشماتة والجحود ، عندما يومئ ساخراً ، بالخليفة المخلوع ، وكيف سيطر عليه الجبن والفزع ، إبان تلك الحادثة فيقول :

أصـــحـــيح بكيت لما أتى الوقـ	ـدُ ونابتك رعـشـةُ الرعـديد
ونسـيت الآباءَ والمجـدَ والسـؤ	ددَ والعـزَ ياكـريمَ الجـدود ؟
مـــاعَهدنا الملوكَ تبكى ولكنْ	عَلّهـا نزوةُ الفـؤاد الجليـد
علهـا دمـعـةُ الوداع لذاك الـ	ـملك أو ذكـرةٌ لتلك العـهـود
غسل الدمعُ عنك حوبة[1] ماضيـ	ـك ووقّاك شرَ يوم الوعـيـد[2]

لقد شرع حافظ فى هذه الأبيات ، يعرض لنا صوراً مختلفة لهذا الخليفة،وقد فاضت عيناه ، وانسابت عبراته دماً ، مودعةً ذلك الملك .

وهنا يتوجه الشاعر فى سؤال استنكارى ، غرضه التهكم والسخرية ، إلى وصف الخليفة بالجبن والتخاذل ، عند بكائه لملكه الزائل المنهار ،

وإذا كان الشاعر قد عرض علينا هذا المشهد الدرامى عرضاً مؤلماً ، فإنما هو حكيم يقص عبر الزمان ، ويتتبع أحداثه وسقطاته ، مع المغرورين من العظماء - أو هكذا خيل إليهم - الذين يتعالون على الإنسانية ، ويهزأون بها ، ثم يسخرونها لمآربهم ، ومطامعهم ، ونزواتهم ، فى شىء من الأثرة والأنانية ، وكان عبد الحميد واحداً منهم

---

(١) الحَوْبُ والحَوْبَةُ : الأبوان ، والأخت ، والبنت ، والإثمُ ، والحزن . والحُوْبُ : النفس ، والهلاك ، والبلاء ، والمرض .

(٢) الديـــوان : جـ٢ ص ٤٦ .

غير أن الشاعر يقف بنا على صورة أخرى ، وإن اختلفت عن سابقتها ، لكنها تدور فى الفلك ذاته ، فلك الظالمين من الحكام والسلاطين ، ممن نصبوا أنفسهم جبابرة فى الأرض ، يغرهم ماهم فيه من الرياش والنعيم والسلطان .

فيقول فى مقطوعة قصيرة ، جاءت فى ثلاثة أبيات ، عنونها بـ «إلى مولاى عبد العزيز سلطان مراكش» :[1]

(عبد العزيز) لقد ذكَّرتنا أمماً كانت جوارك فى لهوٍ وفى طرب
ذكَّرتنا يوم ضاعتْ أرضُ أندلسٍ الحربُ فى الباب والسلطانُ فى اللعب
فاحذرْ على التخت أن يسري الفساد به فتحت سُلطانة[2] أعدَى من الجرب[3]

وهنا يهجو الشاعر ذلك السلطان الفاسق ،مذكراً إياه بما كان عليه الحال فى بلاد الأندلس ، وكيف زالت من أيدى العرب ، وما كان ذلك ليتأتىً إلا بسبب ما آلت إليه أحوالهم ، على أيدى حكامهم ، الذين انصرفوا إلى اللهو والخلاعة والمجون ، حتى زالت دولتهم وعادوا إلى حيث كانوا .

وقيل : إن هذا السلطان «كان معروفاً بالإخلاد إلى المجون واللهو ، حتى أنه بعث إلى مصر فى طلب جماعة من المطربين والمطربات ، فسافر إليه جماعة منهم ، فأنكر عليه المسلمون فعله ، وكتبت الصحف مستهجنة هذا الصنيع من سلطان مسلم ، وأكثر الشعراء من القصائد الشعرية الطريفة»[4] فى هذا السلطان الماجن .

---

(١) هو ابن السلطان مولاى الحسن ، وكان مولده سنة ١٢٩٦هـ . تولى الملك بعد وفاة أبيه فى سنة ١٣١١هـ ، ثم خلع فى سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م .

(٢) سلطانة : من المغنيات المشهورات فى مصر فى ذلك العصر ، وكانت بين بعثة الغناء التى سافرت إلى سلطان مراكش .

(٣) الديوان : جـ ٢ ص ٦ .

(٤) الحاشـــــية .

وهكذا استطاع شاعر النيل أن ينقل لنا بعضاً من صور عصره ، وإن جاءت فى إشارات قليلة ، وأبيات قصيرة ، غير أنها أبانت عن ملامح ذلك العصر ، وكشفت النقاب عما كان عليه حكامه .

الفصل الثانى

السخرية من المجتمع

١- السخرية من الكسل والتواكل

٢- السخرية من الجمود والتخلف

٣- السخرية من النفاق

٤- متفرقات ساخرة فى شعر حافظ إبراهيم



السخرية من المجتمع

١- السخرية من الكسل والتواكل :

على أثر الاحتلال الإنجليزى لمصر ، فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، شهدت مصر فترة حالكة السواد من تاريخها ، وانتاب الشعب المصرى حالة من فقدان الذات ، ويمكن القول : إن الشعب قد رجع القهقرى مرة أخرى ، إلى ما قبل مجيء محمد على إلى الحكم عام ١٨٠٥ ، ذلك العصر المظلم ، الذى شهد المصريون فيه صوراً من القهر والذل والهوان.

وقد "أدرك العقلاء والراشدون أن تهذيب الشعب وإصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى فى سبيل أى نهضة. فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرض فى حياتنا وينبهون إليها فى لين الواعظ المشفق على قومه ، الحريص على هدايتهم حينا ، وفى عنف المغيظ المحنق الذى غلب عليه اليأس من الإصلاح والضيق بالفساد حينا آخر. وكان من أثر ذلك أن ظهر فى أوائل القرن العشرين لون من الأدب الواقعى الذى يرتبط بالحياة أشد الارتباط ، ويستمد موضوعاته مما يجرى من حوله ، فاحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الأدبية المختلفة. وطالعتنا كثير من القصائد والمقالات الهجائية التى تلهب المجتمع بسياط النقد المر ، وتهاجم معايبه ، وتتهكم بآساليب حياته الفاسدة."[1]

وكان من الطبيعى أن تثور نفس حافظ ، الشاعر الغيور على أمته وشعبه ، حتى أنه يصفها بأقبح الصفات ، ويذمها بأقسى المذمات ، ولِمَ لا وقد قعدت بها المعالى ، وتوارت بها السنون ، وخلفتها العصور ، فلم يعد

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : جـ١ ص٢٣١.

لها ذكرٌ بين الأمم ، بعد أن كانت ملء السمع والبصر .

ففى عصرها الفرعونى ، أضحت منارة الدنيا وزينتها ، بعد أن نشرت شيئاً من الحضارة والمعرفة على بنى الإنسان .

وفى عصرها القبطى ، صدرت المسيحية إلى أرجاء المعمورة ، فأثرت الروح الإنسانى بهذا الثراء الإلهى ، حتى فرضت نفسها على العالم ، بعد أن أدان لها غير كاره .

ثم كان عصرها الإسلامى ، بمثابة ضوء فى البرية ، أشرق على العالم فجره ، واستطاع ذلك الضوء ، أن يقضى على فلول الظلام ، فأضاء جوانب كثيرة من العالم ، بعد أن أيقظه على عهد جديد من الروحانيات ، فتهللت جنبات الكون بتلك الفيوضات .

استحضر حافظ ذلك كله ، مصرياً متحفزاً ، وإنساناً مفكراً ، لايكاد يهدأ على حال ، بينما يلهو شعبه ، وتتوه أمته ، وسط ضجيج الأصوات ، التى ضلت طريقها ، فصاح فيهم صيحاته المدوية ، ملتحماً مع أعلام عصره ومفكريه ، من أمثال الشيخ محمد عبده ، وقاسم أمين[١] ، ومصطفى كامل، ومحمد فريد [٢] ، ولطفى السيد [٣] .

لقد نهل هؤلاء جميعا - رغم الأهواء المختلفة - من نبع واحد ، كان الأفغانى [٤] على قمته ، وفى منطقة وسطى من أعلاه ، حتى تشربوا مبادئه، بعد أن تعرفوا عليها عن قرب .

---

(١) ولد سنة ١٨٦٣ وتوفى سنة ١٩٠٨ . الأعلام ١٨٤/٥ .

(٢) ولد سنة ١٨٦٨ وتوفى سنة ١٩١٩ . الأعلام ٣٢٨/٦ .

(٣) ولد سنة ١٨٧٠ وتوفى سنة ١٩٦٣ . الأعلام ٢٠٠/١ .

(٤) هو محمد بن صفدر الحسينى ولد سنة ١٨٣٨ وتوفى سنة ١٨٩٧ . الأعلام ١٦٨/٦ .

يقول الأفغانى :

إنكم معاشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون ، من زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتَعْنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تَسومكم حكوماتكم الحيف والجَوْر ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون ، بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم - التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم - بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون - فلو كان فى عروقكم دم فيه كرُيات حيوية ، وفى رؤسكم أعصاب تتأثر ، فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة .. تناوبتكم أيدى الرعاة ، ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك إلخ ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمهِ ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لاحس لكم ولا صوت .

"انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بِمنعَة آبائكم ، وعزة أجدادكم " . «هُبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم !عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء»[1]

ورغم القسوة الشديدة ، والإهانات المريرة ، التى وجهها جمال الدين الأفغانى إلى الشعب المصرى ، فقد كان هدفه بعث النخوة والإباء فى نفوس المصريين ، بعد أن أصابهم الوهن والعجز والفتور .

وعلى هذا كان حافظ إبراهيم ، يترجم ذلك شعراً ، وإن كان قاسياً كجمال الدين .

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٧٩ .

يقول الشيخ محمد عبده ، فى وصفه حال مصر ، قبل مجىء جمال الدين الأفغانى : إن أهالى مصر كانوا يرون شئونهم العامة ، بل والخاصة ، ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، ويتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم ، موكولان إلى أمانته وعدله، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً ، يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال ، يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعملون من علاقة بينهم وبين الحكومة ، سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به ، وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ماعليه الأمم الأخرى ، سواء كانت إسلامية أو أوربية.» [1] وتلك حالة من السوء والاستسلام ، أماطت اللثام عن حقبة مظلمة من تاريخ مصر الحديث.

وكان طبيعياً أن يسير حافظ على نهج أستاذه الشيخ محمد عبده ، وأستاذه جمال الدين الأفغانى ، فنهل من آرائهما معاً ، ونشرها للناس ، مخلصاً لها ، أشد مايكون الإخلاص ، بعد أن توافقت مع نفسه الثائرة ، وروحه المتمردة ، وسعيه الدءوب .

وقد تجلى ذلك فى أشعارة ، باعتبارها رسائل غاضبة ، وقذائف حانقة ، على ذويها ، أينما كانوا ، فيهب صارخاً فى قومه :

كاشفَ الكهرباء ليتك تُغْنى ... باختراع يروضُ منّا الطباعا
آلةٍ تسحقُ التواكلَ فى الشر ... قِ وتلقى عن الرياء القناعا
قد مللنا وقوفَنا فيه نبكى ... حسباً زائلاً ومجداً مُضاعا
وسمعنا مقالهم كان زيدٌ ... عبقرياً وكان عمرو شجاعا
ليت شعرى متى تنازعُ مصرٌ ... غيرها المجدَ فى الحياةِ نزاعا

(١) المرجع السابق : ص ٧٤ .

ونراها تفاخرُ الناس بالأحيـ ـاء فخراً فى الخافقيْن[1] مذاعا[2]

إنه ينعى على المصريين ماآل إليه حالهم ، فيعلو الغضب وجهه ، نشاهده فى صوته المتهدج ، ونبراته العالية ، وأناته الحزينة ، التى تكشفت من خلال :

- السخرية من الكسل والتواكل .

- السخرية من الزيف والنفاق .

- السخرية من البكاء على الأطلال الدارسة ، التى اتخذها رمزاً للتخلف ، بعد أن بهرته الحضارة الغربية الحديثة ، فأخذ ينبه شعبه لها ويحثه على مجاراتها ، وإن سلك فى ذلك مسالك شائنة معيبة .

لقد وهب حافظ إبراهيم يراعاً صادقاً ، وملكة صافية ، وقريحة مبدعة، سخرها للدعوة إلى الإصلاح ، والنهوض بالمجتمع المصرى فى تلك المرحلة .

ولهذا تكون السخرية شيئاً محموداً ، وسبيلاً مشروعاً ، فالمروءة والنخوة والشرف ، أمور تنبع من ذوات الأفراد ، لا يفرضها قانون ولا تصوغها جماعة . غير أنها تتأثر بسلوكهم الحى ، وضمائرهم الواعية ومن هنا ، لايستطيع المجتمع أن يحاسب الكسالى ، أو المتواكلين ، أو القاعدين من أبنائه ، بغير تلك الوسائل .

وبذلك تكون السخرية بمثابة «القانون» الذى يقوّم هذه العيوب ، بعد أن يستهجنها ، وقد يكون ذلك بالنكتة الجارحة ، أو بالهجاء الساخر ، أو بالدعابه الهادفة ، أو بالمثل الشعبى ، إلى غير ذلك من أدوات ووسائل ، وقد يصل إلى مرحلة أعلى ، هو ما نطلق عليه التهكم .

---

(1) الخافقان : المشرق والمغرب .

(2) الديوان : جـ ١ ص ٢٦٠ .

إننا نسخر من عيوب كثيرة ، نراها ونختلف معها ، ونسخر كذلك من أفعال لا نراها فى أحسن حالاتها ، وإنما نراها دون ذلك بكثير .

إننا «نسخر من العيوب الخلقية والنفسية ، التى لا تساير المثل العالية للمجتمع ، ولا توافق العرف العام ، كالبخل والجبن ، والكسل ، والغرور ، وحب الظهور ، وهى كما يبدو عيوب شخصية ، لا يتعدى ضررها صاحبها إلا فى النادر ، وليس ضررها خطيراً أو مباشراً ، وكذلك لم تشرع لها عقوبات ، ولم يتعرض لها قانون ، ولكنها تركت للمجتمع يعالجها بوسائله الخاصة ، أما العيوب الهدامة للمجتمع التى تلحق الأذى بأفراده ، وتنشر الفظائع بينهم ، كالميل إلى القتل والسلب والفجور والغش والخيانة ، فقد وقفت منها القوانين موقفاً صارماً ، واتخذت الاحتياطات الواجبة لمقاومتها ومنع وقوعها ، وشرعت لها ألوان من العقاب مجزية ورادعة .»[1]

ولقد سن المجتمع هذه الوسائل ، بغرض التقويم والإصلاح ، وهى أساليب قديمة قدم الإنسانية ، بمجالاتها المختلفة ، وغاياتها المتعددة ، وهذا ماقاومه المصلحون فى كل عصر ، بعد أن وقفوا له بالمرصاد ، يضيقون على أصحاب الطريق ، حتى يكون الارتداد والاستقامة والاعتدال . استمع إلى شاعر النيل ، يهاجم القول دون الفعل ، فيقول :

مـــــاهَدّ عَزمَ القـــــادريـ ـــــن بمِـصْرَ إلا قَوْلُ : بـــاكِرْ
كـمْ ذا نُحـــــيلُ علـى غَدٍ وغَدٌ مَصيــرَ اليَوْمِ صـــائرْ
خَوَتِ الديار فـــــلا اختـــرا عَ ولا اقـتـصـادَ ولا ذخَائِرْ [2]

ولهذا يسخر الشاعر من الأقوال التى تتكرر كثيراً على شفاه الناس ،

(١) السخرية فى أدب المازنى : ص ٥٣ .
(٢) الديوان : جـ ١ ص ٢٩٥ .

وقد ملتها الأسماع ، ومجتها الآذان ، بعد أن أصبحت سبيلاً إلى الاستهزاء، ورمزاً على عدم العمل . ثم يقول فى ذات المعنى :

ومـــاذا عليــــه إذا فـــاتنا ونَحْنُ عـلـى الـعَيْش لـم نَدْأب
ألفْنا الخـــمـــولَ وباليْتـــتَا أَلِفنا الخــــمُولَ ولم نَكْذبِ (١)

لقد ألف الناس الخمول ، واستمرأوا الكسل ، وقعد بهم السعىُ ، ولم يكن ذلك وحده ، وإنما تفشى بينهم الكذب ، واستشرى النفاق ، فاجتمع لديهم رصيد كبير ، من الجهل والتخلف والسلبية .

لقد دأب الشاعر فى كثير من قصائده على الحديث عن الشرق،والشرق هنا ، هو الشرق العربى الإسلامى ، وهنا تبدو رؤية حافظ الشاملة ، التى تعد سابقة لعصره ، نراها فى قوله :

قـعـدتْ شـعـوبُ الشـرق عن كـسب المحـامـد والمفـاخـرْ
فـــونتْ وفـى شَرْع التـنـاحــ ـــر من ونى لاشَكَّ خــــاسرْ
تمشى الشـــعـــوبُ لقَصْدها قُدُمــــاً وشَعْبُ النـيـل آخــرْ
كم فـى الكِنانـةِ مـنْ فــــتـى نَدبٍ وكَمْ فى الشــام قــادرْ
لـكـنـهـم لـم يـرزقـــــوا رأيـاً ولـم يـردوا المخــــاطِرْ
هـذا يـطيـــرُ مـع الخيــــال وذاك يَرتجـــلُ الـــنـــوادرْ
جـهلوا الحـيـاةَ ومـا الحـيـاةُ لغـــيــر كـــدَّاحٍ مُغَامــرْ
يَجْتـــابُ أجـــوازَ القـــفــا ر ويمـــتـطـى مـــتنَ الـزواخرْ
لا يسـتـشـيـر سُوى العـزيـ ـمـةِ فى الموارِدِ والمصــادرْ
يَرمى وراءَ البـــاقـــيـــا ت بنَفْسه رمـى المـقامِر (٢)

(١) السابق : جـ١ ص ٢٥٨ .

(٢) الديوان : جـ ٢ ص ٢٩٤ .

وهكذا نرى صورة ساخرة ، استقاها الشاعر من الواقع الحى ، لا لمصر وحدها ، وإنما للشرق العربى كله ، الذى لعب الخيال بعقول أبنائه ، ولم يعد لهم فى الحياة من مآرب ، سوى ما يتندرون به من خرافات ، آتت على البقية الباقية من عقولهم ، فأبعدهم ذلك عن الجد والعمل والتسابق ، ودفعهم إلى التواكل والتقوقع فى ذواتهم ، بينما الغربيون تجاوزوا أبراج الفضاء - فى عصر حافظ - وقطعوا أشواطاً كبيرة فيه .

ولم يكن غريباً أن تصبح مصر ، التى هذه صورتها ، فى آخر عربات القطار ، تخلفاً وانحداراً ، وكذلك الشرق العربى ، الذى تنتمى إليه .

لهذا ، تخرج كلمات الشاعر بكاءً وأنيناً ، حتى لاتكاد نفسه المتعبة تهدأ ، فيقول :

لَعَمْرُكَ ماأرقْتُ لغير مصرٍ	ومالى دونَها أملٌ يرامُ
ذكرتُ جلالها أيام كانت	تصولُ بها الفراعنةُ العظامُ
وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ	وأيام الزمان لها غُلامُ
فأقلق مضجعى ما بات فيها	وباتَتْ مصرُ فيه ، فهل ألام ؟
أرى شعباً بمدْرجة العوادى	تمخخ عَظْمَهُ داءٌ عقامُ
إذا مامر بالبأساء عامٌ	أطل عليه بالبأساء عامُ
سرىَ داءُ التواكلُ فيه حتى	تخطفَ رزْقه ذاك الزحامُ
قد استعصى على الحكماء منا	كما استعصى على الطب الجُذامُ[1]

فى هذه الأبيات ، يطالعنا الشاعر ، المهموم بهموم وطنه ، بالمقارنة غير العادلة بين الماضى والحاضر ، فيومئ إلى مصر «أيام الرجال بها رجال» فماذا عساه يقول ؟! وماذا فى مصر - حافظ - هل مازال فيها أحد من

(١) الديوان : جـ٢ ص ٥٥ .

هؤلاء؟!! ذلك ماينفيه الشاعر ، لذا يتوجه بالتساؤل الذى ينكره مسبقاً -
فهل ألامُ؟!!

٢ - السخرية من الجمود والتخلف :

والحديث عن الكسل والتواكل ، ينقلنا بالتالى ، إلى الحديث عن الجمود والتخلف ، فهما الوجه الآخر والنتيجة الحتمية لهما ، حيث يعرض أمامنا الشاعر نماذج حقيقية لواقع عصره ، يستحضر فيها صوراً مشرقة لمضامين الحضارة الغربية ، وكيف صار الناس من طور إلى طور ، فى تناسق وتسابق واستمرار . أما شعوبنا ، فقد وقف الشقاق لها بالمرصاد ، بعد أن تلاقحت نفوسها بالفتن والأرزاء .

وفى ضوء هذا ، يطالعنا الشاعر بقصائد غير قليلة فى هذا الجانب ، تراوحت بين الهجاء الساخر ، والحض على العمل ، وقد مزج ذلك كله بغيرته على شعبه الواهن الضعيف . فيقول متحسراً :

شمسُهم غادةٌ عليها حجابٌ ... فهى شرقيةٌ حوتها الخدورُ

شمسُنا غادةٌ أبت أن تَوارَى ... فهى غربيةٌ جلاها السفورُ

جوهم فى تقلُّبٍ واختلاف ... غير أن الثباتَ فيهم وفيرُ

جونا أثبتُ الجواءِ ولكن ... ليس فينا على الثبات صَبورُ

ولديهم . من الفنون لُبابٌ ... ولدينا من الفنون قشورُ

أنكر الوقفُ شرعَهم فلهذا ... كلُّ رَبْعٍ بأرضهم معمورُ [1]

ليس فيها مستنقعٌ أو جدارٌ ... قد تداعى أو مسكنٌ مهجورُ

كل شبرٍ فيها عليه بناء ... مُشمخرٌ أو روضةٌ أو غديرُ

قسَّموا الوقت بين لهوٍ وجدٍ ... فى مدى اليوم قسمةً لا تجورُ

كلهم كادحٌ بكور إلى الرِّزْ ... قِ ولاهٍ إذا دعاه السرور [2]

---

(١) يشير إلى مايلحق منازل الأوقاف فى مصر ، من التخريب والدمار ، لعدم العناية بها .

(٢) الديوان : جـ ١ ص ٢٣٠ .

والشاعر هنا يعطينا صورة كلية ، ولكنها صورة ناقدة ثاقبة ، يقارن فيها بين جو الطبيعة عند الغربيين ، والطبيعة فى بلادنا .

فعلى الرغم من جمال الطبيعة لدينا ، فإنه لايوجد العمل الجاد ، بينما يختلف الأمر هناك ، تبعاً لاختلاف البشر ، الذى هو وحده المعيار .

ثم لا يفوت الشاعر أن يتهكم على البيئة فى مصر ، تلك التى تتزىً بزى خاص ، وسمة لا تتغير ، تبرز من خلال مستنقعاتها ، وبركها ، وبيوتها ، دون أثر لاعتناء ، أو تحضر ، أو اجتهاد .

أما هناك ، فإنه يعطينا صوراً ناضجة ، لبيئة ناضجة ، يفوح من جنباتها عبق التحضر والرقى ، لشعب قسم وقته قسمة عادلة ، بين عمل وتربيض ، وتسابق وترويح ، أما نحن ، فعلى وتيرة واحدة نسير .

ثم يستكمل الشاعر مستهجناً متأففاً ، لواقع لايرضاه ولا يتآلف معه ، وواقع يقبل عليه ويتسامى ، لأنه وحده الواقع الإنسانى ، وما دونه واقع هامشى ، لا حياة فيه ولا روح ، إنه يذم هنا من حيث يمدح هناك . فيقول :

لا ترى فى الصباح لاعبَ نردٍ ... حوله الرهان جمٌ غفيرُ

لا ولا باهلاً سليم النواحى ... للقهاوى رواحُه والبكُورُ (1)

لم يحل بينهم وبين الملاهى ... أو شؤون الحياة جوٌ مطيرُ

لا يبالونَ بالطبيعة حَنَّتْ ... أم تجنَّتْ أم احتواها النُّعُورُ

عصفت فوقهم رياحٌ عواتٍ ... أم أجازت بهم صَبَاً أم دبُورُ

قد أعدُّوا لحادثات الليالى ... عُدةً لا يحوزها التقديرُ

نضَّروا الصخر فى رؤس الرَّواسى ... ولدينا فى موطن الخصب بورُ (2)

---

(1) الباهل : المتردد بلا عمل .

(2) الصبا : ريح الشمال ، وتقابلها الدبور ، وهى ريح الجنوب .

قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسرى إلى الكمال البدور
والجوارى فى النيل من عهد (نوحٍ) لم يقدرْ لصنعها تغيير
ولِعَ القومُ بالنظافة حتى جُنّ فيها غنيُّهم والفقير[1]

إن الشاعر هنا ، ينعى فى إيماءاته الساخرة على المصريين طباعهم وعاداتهم ، وبخاصة من يجلسون الساعات الطوال على المقاهى ، بل منهم من يصل الصباح بالمساء .

أما الغربيون فهم لا يعبأون بالطبيعة حنت أم تجنت ، فقد أعدوا لكل شيء عدته ، حتى زرعوا صخور الرواسى الشامخة ، بينما تركت أرضنا الخصبة يأكلها البوار .

ثم يعود الشاعر فيذكر صور الجمود ، التى مافتئ يكررها مرة بعد مرة، وهى صور لم تتغير كثيراً فيما أبدعه من أشعار .

فالجوارى فى النيل من عهد نوح ، لم ينل منها التطور أو التغيير ، والإنسان هو هو منذ الجدود ، ويالبته وصلهم جداً وعملاً ، كما وصلهم جنساً ونسباً .

ولهذا «كان جميلاً منه أن يدعو المصريين إلى انتهاج خطى الغرب ، فى السعى والجد والعمل ، وكان جميلاً منه أيضاً ، أن يدعوهم إلى ترك شكوى الدهر ، فتراه يخاطب المصرى قائلاً : [2]

وانظرْ إلى الغربى كيف سَمت به بين الشعوب طبيعةُ الكدّاح
والله ما بلغَت بنو الغرب المُنى إلا بنياتٍ هناك صحاح
فانهض ودع شكوى الزمان ولاتَنُحْ فى فادح البُؤْسى مع الأنواح

---

(1) الديوان : جـ ١ ص ٢٣١ .

(2) حافظ إبراهيم الشاعر السياسى : مطبعة الاعتماد - القاهرة ١٩٤٧ . ص ٦١ ، ٦٢ .

ويقام مهرجان في دار الأوبرا المصرية ، لتكريم أحمد شوقى بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ ، ويصدح شاعر النيل بواحدة من روائعه ، يستعرض فيها فن القصيد واتجاهاته عند شوقى ، عارضاً لأشعاره ، مثنياً عليها ، ولكنه فى تضاعيف ذلك ، يعرج إلى هدفه ، الذى وهبه يراعه ، وسنه لنفسه ، فيهاجم الجمود ، وهكذا يفعل فى كل مرة ، لكنه هذه المرة ، ممثلاً فى الشعر، الذى مازال يقتفى نهج القدماء ، لا من حيث الشكل والصياغة فحسب ، وإنما من حيث الألفاظ والمعانى والصور ، فيقول :

وقفنا على النهج القويم فإننا سلكنا طريقاً للهدى غير مَهْيَع [1]

ملأنا طباقَ الأرض وجداً ولوعةً بـهـنـدٍ ودعْدٍ والـربـاب وبَوْزع

وملّت بناتُ الشعر منا مواقفا بسِقْطِ اللّوى (والرقمتيْن) و(لعلع) [2]

وأقوامُنا فى الشرقِ قد طال نومُهم وما كان نومُ الشعر بالمتوقع

تغيرتْ الدنيا وقد كان أهلُها يَرَوْنَ متونَ العيس ألينَ مضجع [3]

وكان بريد العلم عِيراً وأينُقاً متى يُعْيِها الإ يجاف فى البيد تظلع [4]

فأصبح لا يرضىَ البُخارَ مطيةً ولا السلكَ في تياره المتدفّع [5]

وإذا كان حافظ في هذه الأبيات ، ينعى على الشعراء السير على نهج القدماء وتقليدهم ، كما يتبدى لنا ، إلا أنه يهاجم الجمود ، والمقصود بذلك جمود الحياة ، وإنما أخذ الشعر وسيلة إلى ذلك ورمزاً له ، "فأنت ترى من كل هذا ، أن الدعوة الشرقية عنده ، كانت دعوة إلى البناء ، وإلى العمل

---

(١) المهيع : الطريق الواضح .

(٢) أسماء مواضع فى بلاد العرب القديمة .

(٣)متون العيس : ظهور الإبل .

(٤) العير : القافلة . أينقٌ : جمع ناقة . الإيجاف : الإسراع . وتظلع : تعرج فى مشيتها .

(٥) الديوان : جـ ١ : ص ١٢٩ .

الجدى ، فى سبيل الرقى ، حتى يرتفع بأمم الشرق إلى مدنية العصر ، ومدنية العلم والاختراع . . . ولعمرى أن هذا هو الطريق السوى ، الذى توحى به العاطفة ، المقترنة بالعقل والحكمة والروية . . . بمثل هذه الروح وحدها يستطيع الشرق أن يساير التاريخ ، وأن يسترد شيئاً من مكانته . » [1]

والدليل الآخر ، أن الشاعر قد أخذ يفصل ذلك ، مبيناً ، غرضه وكاشفاً عما أراده . فيقول :

وقد كان كل الأمر تصويبُ نبلةٍ	فأصبح بعضَ الأمر تصويبُ مدفعِ
ونحن كما غنىُّ الأوائلُ لم نزلْ	نُغنى بأرماحٍ وبيضٍ وأدرعِ
عرفنا مدى الشىء القديم فهل مدىً	لشىء جديدٍ حاضرِ النفعِ ممتعِ
لدى كلِّ شعبٍ فى الحوادثِ عُدةٌ	وعُدتنا ندبُ التراثِ المُضيَّعِ [2]

إنها دعوة صريحة ، لم يزل يكررها حافظ ، غير أنها تعبر عن «فوران عاطفى» تضيق به نفسه الواجدة . فقد "كانت نفس حافظ فى تلك الأيام ثائرة على كل شئ ، وكانت ثائرة على الذين يضطهدون البلاد ، وكانت ثائرة على الظلم المحيق ، كما كانت ثائرة على الأدب نفسه ، وعلى الأسلوب القديم ، الذى وقف عنده أدباء عصره ، وحافظوا عليه ، كما وقف هو عنده طويلاً فى بدء حياته الأدبية ، والنفس التى تشعر بغبنها ، تثور على كل شئ ، حتى على نفسها [3]

وهكذا تمتزج سخرية حافظ بالثورة الصادقة ، والدعوة الخالصة إلى ما يجب أن تكون عليه الأمة ، وتلك دعوة متقدمة ، تحسب لشاعر النيل ، وتجعله فى مكانة لائقة بين أقرانه ، من أصحاب هذا الإتجاه .

---

(١) حافظ إبراهيم الشاعر السياسى ، ص ٣٦ ، ٣٧

(٢) الديوان : جـ ١ ص ١٢٩ .

(٣) حياة حافظ : لحسين الهدى الغنام : ص ١٧ .

والحق أن حافظاً قد تجاوز كثيراً فى ذلك ، متخذاً من دعوته هذه سوطاً قاسياً ، يلهب به أجساد المصريين ، فهجاهم هجاءً مراً شديداً ، وسخر منهم فى غير مواراة أو استحياء ، يخاطبهم خطاباً مجرداً من كل عاطفة ، وكأنه ليس واحداً منهم .

لقد أعلن شاعر النيل الحرب على عيوب مجتمعه ومخازيه ، يحاربها بكل ضراوة وشراسة ، فى غير هوادة أو تردد أو تراجع .

فالسخرية سلاح من أسلحة الحرب ، التى يروج لها حافظ ويشعل أوراها ، ولكن هذه الحرب ليست حرباً مادية ، بل هى حرب اجتماعية ونفسية ، تقاوم عيوب الجماعة ، وتسخر من أفعالها ، بعد أن تمقتها وتمجها ، فالزمان غير الزمان والإنسان غير الإنسان !!!

زمانٌ تُسخَّرُ فيه الرياحُ ... ويعدو الجمادُ له منشدا
وتعنو الطبيعةُ للعارفين ... بمعنى الوجود وسر الهدى [1]
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل ... نغنى بأرماح وبيضٍ وأدرعِ [2]

فلا بكاء على مجد زائل ، وإنما هو عمل وجد ودأب . ذلك مايجسده حافظ فى موضع آخر فيقول :

أيَجمُل من بعد هذا وذاك ... بأن نستكين وأن نجمدا
وها أمةُ (الصفر) [3] قد مهدت ... لنا النهج فاستبقوا الموردا [4]

وبهذا نرى أن تلك الدعوة ، قد أخذت عند شاعر النيل جانباً عملياً

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ٢٦٢ .

(٢) الديوان : جـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) يريد «بأمة الصفر» اليابان .

(٤) الديوان : جـ ١ ص ٢٦٣ .

تطبيقياً، مجرداً من الشعارات أو النظريات الزائفة ، التى تقف بالبعض عند حدود الكلام ، دون طرح للحلول ، ومناقشة للقضايا ، أو تكهن بجديد يرونه .

وهكذا نهجه ففى قصيدة أخرى ، يتحدث الشاعر عن دولة الشعر ، وكيف ضاعت هيبتها فى بلاد الشرق ، بين قوم هجود وأمة مكسال ، غير أن الحديث هنا لم يكن عن الشعر أيضاً ، وإن توجه إليه حافظ ، وإنما الشعر هنا رمز يتخذه الشاعر ، ورداء يتكئ عليه ، ووسيلة إلى غرضه . فيقول :

ضعت بين النهى وبين الخيالِ ... ياحكيمَ النفوسِ يا بنَ المعالى
ضعت فى الشرقِ بين قومٍ هُجُودٍ ... لم يفيقوا وأمةٍ مِكْسالِ
قد أذالوك بين أنسٍ وكأسٍ ... وغرامٍ بظبيةٍ أو غزالِ
ونسيبٍ ومدحةٍ وهجاءٍ ... ورثاءٍ وفتنةٍ وضلالِ
وحماسٍ أراه فى غيرِ شيءٍ ... وصَغَارٍ يجرُّ ذيلَ اختيالِ
عشت ما بينهم مذالاً مضاعاً ... وكذا كنتَ فى العصورِ الخوالى (1)

إن الشاعر يتوجه بهذه الأبيات إلى دولة الشعر والشعراء ، الذين لم يوجهوا أشعارهم إلى قضايا الوطن ومشكلاته ، وإنما درجوا على السير فى دروب القدماء ، وأغراضهم .

ومن هنا نلمح دعوة صريحة إلى التجديد ، فى موضوعات القصيدة العربية ، عند شاعر النيل .

والحق أن موضوعات القصيدة ، فى شعر حافظ ، قد تواكبت مع ما نادى به ، وذلك ما يحسب للشاعر ، فقد تعددت هذه الموضوعات ، وتجاوبت مع واقع عصرها كما رأينا ، ملتحمة بقضايا الجماهير، فى شتى

---

(1) الديوان : جـ ١ ص ٢٣٧ .

مجالات الحياة ، حتى لايكاد الشاعر يترك موضوعاً ما وإن صغر .

أما أقران ، حافظ فقد ساروا على نهج القدماء ، اللهم إلا فى بعض الموضوعات اليسيرة ، التى كانت تفرضها الأحداث ، أو تتطلبها الظروف . استمع إليه يقول :

حملوك العناءَ من حب (ليلى) و(سليمى) ووقفة الأطلال
وبكاءٍ على عزيزٍ تولى ورسومٍ راحت بهن الليالى
وإذا ما سموا بقدرك يوماً أسكنوك الرِّحالَ فوق الجمال
آن ياشعرُ أن نفك قيوداً قيدتنا بها دعاةُ المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نَشُمُّ ريحَ الشمال[1]

ففى البيت الأخير ، يلخص حافظ غرضه من التجديد ، فى أنه سعى إلى النهوض ، والتطور ، والارتقاء واللحاق بركب الحضارة الغربية . (لنشم ريح الشمال) .

والحق أن هذه الدعوة لم تكن قصراً على حافظ ، وإنما نادى بها كثير ممن عاصروه .[2]

وتحت عنوان : (الامتيازات الأجنبية) يفيض معين الشاعر ، عارضاً صوراً من السخرية والوضاعة ، لبعض من أبناء الكنانة ، مع عهد هذه الامتيازات ، فينشئ قصيدة ، تعد من أقوى قصائده فى بابها ، سباً وتهكماً ، وثورة وسخرية ، يقول فيها :

سكت فأصغروا أدبى وقلتُ فأكبروا أربى
وما أرجوه من بلدٍ به ضاقَ الرجاءُ وبى؟
وهل (فى مصر) مفخرةٌ سوى الألقابِ والرتبِ؟
وذى إرثٍ يكاثرُنا بمالٍ غيرِ مكتسبِ[3]

(١) السابق والصفحة .

(٢) انظر: مستقبل الثقافة فى مصر:جـ ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، ص٣٠ وما بعدها.

(٣) الديوان : جـ ٢ ص ١١٠ .

لقد ضاق الشاعر ذرعاً بالمجتمع ، لما لاقاه من الجهل والعنت والتشتت، سواء في الفكر أو السلوك ، ومن الطبيعي أن تثور حفيظته ، وتعلو نبرته ، وتزداد حدته ، بعد أن تأخذ سخرياته في التنامي والصعود .

فإذا كان الشاعر ، قد انتهج نهجاً خطابياً مباشراً ، فذلك سمة التهكم وطريقته المثلى ، كي يصل به إلى من يتوجه إليهم ، دون غيرهم ، «فالتهكم ذو طبيعة خطابية ، لأنه صورة من صور الهجاء السافر .»[1]

يتبدى ذلك في تساؤل الشاعر ، واستنكاره لما يراه ، وماذا يرى سوى تلك المساوئ ، التي اتخذها البعض وسيلة للافتخار والتباهي .

ولهذا يسخر شاعر النيل من هؤلاء جميعاً ، الذين لاهمَّ لهم سوى الإثراء وشراء الألقاب ، التي يتفاخرون بها ، وهي دعوة متقدمة لشاعر النيل ، كما يقول صالح جودت : «فهو يمسك بمعول الثورة لينقض على الإقطاع ، انقضاضة متكررة في أكثر من قصيدة ، على حين أنه لم يتعرض أحد من شعراء عصره لهذه الظاهرة ، التي كانت قوام الحياة في مصر وقتئذ .[2]

وفي ظل هذا لم يكن غريباً هذا الخطاب ، بما به من صنوف من السباب والإهانات ، في سخرية بالغة الإساءة ، تخلو من العواطف ، وتثور كالبركان، أزكاها شعوره الغاضب ، ونفسه الملتاعة ، التي تنطلق كلماتها إلى هؤلاء، وكأنها شواظ من نار ، تهوي على رؤسهم :

أروني بينكم رجلاً ... ركيناً واضحَ الحسب
أروني نصفَ مخترعٍ ... أروني ربعَ مُحتسب؟
أروني نادياً حَفْلاً ... بأهل الفضلِ والأدب؟
وماذا في مدارسكم ... من التعليم والكتب؟[3]

---

(1) انظر : هنري برجسون : الضحك : ص ٨٥ .
(2) بلابل من الشرق : ص ١٦٨ .
(3) الديوان : جـ ٢ ص ١١٠ .

أليس للشاعر الحق فى أن يثور ويسخر من هؤلاء المقعدين ؟ !!لقد حاول حافظ فى هذه القصيدة . أن ينفى عن شعبه كل صفة جليلة ، فنعتهم بأقبح الألفاظ ، التى رأيناها تترى فى أشعاره كنهر جارى ، حتى لايكاد يبقى على شئ ، وأنىَّ له ذلك ؟! وهو لم ير مايبقى عليه .

يقول المازنى : «أو ليس يكفيكم ، أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه وإحساسه ، وخواطر ومظاهر نفسه ، سواء أكانت جليلة أم دقيقة ، شريفة أم وضيعة ؟؟ وهل الشعر إلا صورة للحياة ؟ وهل كل مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة ، حتى لا يتوخى الشاعر فى شعره إلا كل جليل من المعانى والأغراض؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف أليس شرف المعنى وجلالته فى صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل . [1] حتى لو كان تعبيراً عن غير الجليل .

كان الصدق ديدن حافظ وعادته ، فجاءت ألفاظه صريحة معبرة من أغراضها ، تلك الأغراض التى أرادها الشاعر وأبان عنها . انظر إلى قوله فى موضع آخر من ذات القصيدة :

ومــــاذا فى مــــساجـــدكم	من التــبـــيــــانِ والخطبِ ؟
ومــــاذا فى صــــحــــائفكم	ســوى التـــمـــويه والكذبِ ؟
حــــصــــــائدُ ألسنٍ جَرَّت	إلـــى الـــويـــلات والحَرَبِ [2]

لكنه كعادته يختم القصيدة ، بما يؤكد صدقه ، وهدفه السامى ، الذى ينشده ويعمل له ، فيقول :

فــهــبــوا من مــراقــدكم	فــــــإنَّ الـوقـتَ مـن ذهـبِ

---

(١) حصاد الهشيم : دار الشعب - القاهرة - (د . ت) ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) الديـــــوان : جـ ٢ ص ١١١ .

فهذى أمة (اليـــــابا ن) جازت دارة الشهب

فهامت بالعـــلا شغفـًا وهمنا بابنـــــة العنب[1]

وإذا كان الشاعر ينهى هذه الأبيات بهذا الحس الوطنى، الذى لا يحيـــد عنه، فى مقارنة بأمة اليابان، التى تسنمت آفاق المجد، والتى هامت بالعلا شـغفًا وهمنا بابنة العنب، فإنه يطرح القضية كعادته، ولا يتركها حتى يجيب، فيقول:

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشى على أرض من الذهب[2]

ثم يقول:

نبكى على بلدٍ سال النُضارُ به للوافدين وأهلوه على سغب[3]

ومن ثم اتخذ الشاعر من الشكوى باباً لاســتنهاض الهمـــم، واســـتنفار العزائم، واستلهام النفوس، وإن بكى وحزن وتألم "فكان فى شـــعره ســـجل الأحداث، إنما يسجلها بدماء قلبه، وأجزاء روحه، ويصوغ منها أدبًا قيمًـــــا، يستحث النفوس، ويدفع إلى النهضة، سواء أضحك فى شعره أم بكى، وأمَّـــل أم يئس[4]" فيقول:

فقد غدت مصر فى حال إذا ذُكِرتْ جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب

كأننى عنـــد ذِكْـــرى ما ألم بهــــا قرْم[5] تردد بين الموت والهرب[6]

---

(١) الديوان: جـ١ ص١١١.

(٢) الديوان: جـ٢ ص ١١٨.

(٣) الديوان: جـ٢ ص٢٦٨.

(٤) المقدمة.

(٥) الأقرم: السيد.

(٦) الديوان: جـ٢ ص١١٨.

ثم قوله :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلاً ما بتُّ أشكو النوبا [1]

وإلى ذلك يشير شوقى فى رثائه فيقول :

كم ضِقتَ ذَرْعاً بالحياة وكيدها وهتفتَ بالشكوى من الضّراءِ [2]

وهكذا يضطرب فى شعره بين التفاؤل والتشاؤم ، اضطراب الأمة بين اليقظة والنوم ، والعمل والتواكل ، والإصابة والخطأ ، فهو صدى لها فى حركتها ، وهو المدرس الحكيم الذى يأخذ موضوع درسه من حوادث يومه [3]

---

(١) الديوان : جـ ٢ ص ٧ .

(٢) الشوقيات : جـ ٣ ص ٢٢ .

(٣) المقدمة .

٣ - السخرية من النفاق :

يعد النفاق أحد الظواهر الاجتماعية ، التى تنتاب المجتمعات فى فتراتها الضعيفة ، ومراحلها المجهدة . وهنا تتسابق النفوس الحائرة ، فتجعله وسيلة لما ترجوه من مآرب وأهداف . ويضيق شاعر النيل بما يراه ، من علل اجتماعية ، يعجز عن وصفها (جنان المفوه والأخطب)

ومن تلك الأحداث التى ألمت بمصر فى ذلك العهد ، حادثة ، يستشعر الشاعر من خلالها فساد الناس ، وتذبذبهم ، وعدم ثباتهم على الرأى والمبدأ، حتى سد عليهم النفاق كل سبيل .

وهنا تجيش نفس شاعر النيل ، وتعلن عن رأيها فى وضوح ، بعد أن ترى ما أصاب هؤلاء الناس .

وقد تمثلت تلك الحادثة فى زواج الشيخ على يوسف [(١)] ، صاحب جريدة المؤيد ، من فتاة تدعى صفية ، بنت الشيخ السادات ، شيخ السادة الوفائية، وكان الشيخ على يوسف قد خطبها من أبيها ، ورضيت به الفتاة ، ولأمر ما، تزوج الشيخ دون علم الأب ، فما كان من الشيخ السادات ، إلا أن رفع دعوى بالتفريق بين الزوجين ، لعدم الكفاءة.» [(٢)] فحكمت له .

غير أن الشيخ على يوسف قد أستأنف تلك الدعوة ، فجاءت لصالحه أيضا ، إلا أن ما تركته هذه القضية ، يصور بحق ما كانت عليه مصر فى تلك الفترة ، كما أنها تجسد صورة غير مرضية للإنسان المصرى وقتئذ ، كما أبرزه حافظ فى تلك الصورة المهينة .

ذلك ماظهر جلياً فى قصيدة شاعر النيل ، حيث نجد أنفسنا أمام

(١) ولد الشيخ على يوسف سنة ١٨٦٣ . وتوفى سنة ١٩١٣ .

(٢) كان الشيخ السادات من الأشراف ، بينما ينتسب الشيخ على يوسف إلى طبقات الشعب .

صورتين لهذا المجتمع ، يعرضهما علينا الشاعر عرضاً مؤلماً مسفاً .

ففي الأولى : نرى الناس ، وقد أنكروا على الشيخ ذلك الزواج.

وفي الثانية : نراهم وقد تسابقوا إليه بالتهاني ، وهنا ينعى حافظ على الأمة نفاقها وتناقضها ، فيقول :

وقالوا : (المؤيد) في غمرةٍ   رماه بها الطمعُ الأشعَبي
دعاه الغرامُ بسن الكهولِ   فجن جنوناً ببنت النبي
فضج لها العرشُ والحاملوه   وضجَّ لها القبرُ في يثربِ
ونادى رجالٌ بإسقاطه   وقالوا : تلونَ في المشرب
وعدُّوا عليه من السيئات   ألوفاً تدور مع الأحقُب
وقالوا لصيقٌ ببيت الرسول   أغار على النسب الأنجب
وزكّى (أبو خطوةٍ) قولهم   بحكم أحد من المضرب[1]
فما للتهاني على داره   تساقَطُ كالمطر الصيِّب؟
وما للوفود على بابه   تزفُّ البشائر في موكب؟
وما للخليفةِ أسدى إليه   وساماً يليق بصدر الأبي؟[2]

فالشاعر يسخر هنا ، كما أنه يعدد سوءات الشعب المتلون ، الذي اجتمع نفاقه ورضاه على شئ واحد ، وموضوع بعينه . فيقول صارخاً :

(وكم ذا بمصر من المضحكات)   كما قال فيها (أبو الطيب)[3]
أمورٌ تَمرُّ وعيشٌ يَمرّ   ونحن من اللهو في ملعب

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ٢٥٨ .

(٢) هو الشيخ أحمد أبو خطوة قاضي المحكمة ، الذي حكم حكماً ابتدائياً بفسخ عقد الزواج .

(٣) إشارة إلى قول المتنبي في هجاء كافور :

وكم ذا بمصر من المضحكات   ولكنه ضحك كالبكا

وشعبٌ يفرُّ من الصالحات | فرارَ السليم من الأجرب
وصحفٌ تطنُّ طنينَ الذبابِ | وأخرى تشنُّ على الأقرب
وهذا يلوذُ بقصر الأمير | ويدعو إلى ظله الأرحبِ
وهذا يلوذُ بقصر السفيرِ | ويُطْنبُ فى ورده الأعذبِ
وهذا يصيح مع الصائحينَ | على غير قصدٍ ولا مأربِ [1]

إننا نجد أنفسنا أمام مجموعة من الصور الساخرة ، رسمت فى لوحة كئيبة الظلال ، عظيمة الأوار ، عكست ما يبطنه الشاعر ، من لوعة وحيرة وأسى ، يبدأها ببيت المتنبى[2] الذى يفيض التهكم من جنباته ، ويتحف مصر فى عهد من عهودها بالتردى .

لهذا يسخر الشاعرُ من شعبه ، الذى لايفرق بين الصالح والطالح ، فإذا كان الفرار ، يكون من الشئ القبيح ، غير أن الشعب المصرى - الذى اختلطت عليه الروئ - يفر من كل ماهو صالح وجميل ، ويبتعد فى الوقت ذاته عن كل ماهو خير ونبيل ، فالصحف تعج بألوان من الكذب والنفاق ، وتطرب به فى غير خجل أو حياء ، مماثلة بذلك من بيدهم تصاريف الأمور ، بينما تهاجم فى الوقت ذاته نابتة الوطن ، وأبناءه الحقيقيين .

لهذا تفرقت بهم السبل ، ولعبت بنفوسهم الأهواء ، واختلطت عليهم المفاهيم ، فأصبحوا عبئاً على الجماعة الإنسانية ووصمة عار فى جبينها . فالسخرية بهذا ، أداة يتوسل بها الأديب ، فى نيل ما يسعى إليه من أهداف ، يبتغى بها صالح الأمة ، وتقدم الجماعة ، التى يعيش بينها .

إنها نوع من التقويم النفسى المباشر ، يوجه إلى الأفراد ، كما يوجه إلى

---

(١) الديوان : جـ ١ ص٢٥٥ .

(٢) هو أحمد بن الحسين الجعفى المتوفى (٣٥٤ / ٩٦٥) .

الجماعات ، التى ران عليها شئ من تراكمات الواقع وأصدائه ، حتى أصيبت بالعجز والسلبية والتخاذل ، فنفرت من كل فضيلة ، بينما اتجهت إلى كل رذيلة ، تحط من قدرها ، وتسفه آمالها وأحلامها .

إن الفوضى الاجتماعية والسلوكية ، بل والإنسانية ، لا تنشأ بين ليلة وضحاها ، فلا يستطيع المجتمع أن يهضمها فى وقت قصير ، وإنما هى تراكمات عبر زمن طويل ، يزكيها الحدث الطارئ ، بعد أن تستجيب لها المجتمعات الضعيفة .

يقول الدكتور عبد العزيز رفاعى : «حاول الطابع القومى ، فى ظل التبعية السياسية ، مقاومة الطغيان بالسلبية ، ففقد جزءاً من سماته ، فى سبيل الحفاظ على الطابع كله ، وكانت اللامبالاة فى التعبير عن هذا الجزء ومظهره ، بما ترتب عليه من ازدواجية الشخصية ، فمن خلال الانطواء ، أخذت المشاعر تتجلى تعبيراً ، وفى جو التسلط والاستبداد لايتوقف نجاح الفرد على إمكانياته الحقيقية وجهده ، قدر ما يتوقف على العلاقات المرنة، التى يتوسل إلى خلقها فى مراكز القوة ، فلا يكون تفوقه على غيره ثمرة منافسة شريفة ، بل بطريق الرياء والنفاق مع الرؤساء ، والحقد على الزملاء. وفى ظل ضياع الفردية ، زادت المبادرة انخفاضاً ، وكذلك مستوى الطموح ، لتوالى الإحباط المبكر لحاجات المصرى الأساسية ، وسطوة السلطة ، بما أشعره دائماً بعجزه على أن ينجز لنفسه شيئاً ، من ثم نما الشعور القائل بأن السلامة فى الخضوع .[1] ذلك الخضوع الذى تحول إلى الاستسلام والموات ، فلا يستطيع أن يحقق غاياته ، إلا من خلال مايقوم به من أفعال ومخازى ، تصل به إلى القاع ، وتنحدر به إلى الهاوية.

---

(١) الطابع القومى للشخصية المصرية : ص ٢٤٧ .

وهنا تكون ثورات الشاعر المتكررة ، فيدير وجهه شطر الأمة ، التى تضيع الحقائق فيما بينها ، فيصفها بالجهل والغباء ، وينعتها بالتخلف والسلبية .

فبينما هى تهضم حقوق النابهين من أبنائها ، إذ هى فى الوقت ذاته تكرم الجهلاء والأغبياء منهم ، فأحبطت بذلك النفوس ، وأضاعت الحقائق واختلطت لديها المعايير . ذلك ما أراد أن يكشف عنه شاعر النيل . فيقول :

فيا أمةٌ ضاق عن وصفها جنانُ المفوه والأخطب[1]
تَضيع الحقيقةُ ما بيننا ويصلى البرئ مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم ويكرم فينا الجهول الغبى [2]

ومع ذلك ، يكشف الشاعر عن أمانيه ، بازدهار الشرق وتقدمه ، وإن جاء ذلك فى شىء من المرارة والسخط . فيقول :

على الشرق منى سلام الودود وإن طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خصباً بجدْب الزمان فأجدَبَ فى الزمن المُخْصِب[3]

إننا فى سياق هذه الأبيات نشاهد عدداً من المراحل ، وكماً من المفارقات ، انتقل خلالها الشاعر ، من طور إلى طور ، ومن هدف إلى هدف، فبينما نراه هاجياً ساخطاً ، إذ هو فى الوقت ذاته راجياً متمنياً ، وإن صب ذلك جميعه فى قالب من التهكم والسخرية ، بما فيه من أحداث ، وما به من أمثال ، التقطها من عالمها الواقعى ، دون بهرج أو رتوش أو ألوان .

(١) الجَنَانُ : القلب .
(٢) الديوان : جـ ١ ص ٢٥٩ .
(٣) الديوان : جـ ١ ص ٢٥٩ .

لهذا يلتمس الشاعر لنفسه العذر ، ويستميح محدثه بشيء من الغفران، فقد وصل إلى درجة من اليأس ، لا يمكنه تجاوزها ، وأنىّ له ذلك ، وهو يعايش تلك الأحداث ، ويراها عن كثب ، ولم يكن من اللاهين فيسير فى ركبهم ، أو المتسلقين فيكون منهم ، غير أنه مالبث يثور ويسخط ، كلما ألمت بشعبه الملمات ، ونزلت بأمته النوازل ، وليس ذلك بقليل على نفسه . لهذا نرى شيئاً من شدة الخطاب ، وقسوة اللفظ ، وهزء الكلام ، تبلور فى أسلوبه ، وظهر فى لغته ، فأبان عن منابع الحسرة فى نفسه ، متجاوزة كل الحدود ، حتى خرجت به عن المألوف . فيقول :

حَطمْتُ اليراعَ فلا تعجبى	وعِفْتُ البيانَ فلا تَعْتُبى
فما أنت يامصرُ دارُ الأديبِ	ولا أنت بالبلدِ الطيبِ
وكم فيك يامصرُ من كاتبٍ	أقالَ اليراعَ ولم يكتبِ
فلا تعذلينى لهذا السكوت	فقد ضاق بى منك ماضاق بى[1]

وبذلك تتبدى وظيفة السخرية وغايتها ، فيما يوجهه حافظ إلى الناس، من نقد لاذع مميت ، فيتحقق بذلك غرضها ، ويعلو قدرها ، ويتسامى هدفها .

يقول الفيلسوف الإنجليزى سلى : «إنه حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات ، باعتبارها جماعة مغايرة لها ، فإنها تحافظ بهذه السخرية نفسها ، على صميم كيانها الاجتماعى .» [2]

ومن ثم تصير السخرية نقداً للفئة المنحرفة ، التى لاتتقبلها الجماعة الإنسانية ، ولا تتآلف معها ، ولا تستشعر الرضا فى وجودها .

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك : ص ٨١ .

إن «السخر على العموم مبعثه مقابلة الواقع ، باعتبار مافيه من النقص، بصورة الكمال ، باعتبارها أسمى الحالات ، التى ينبغى أن يكون عليها الواقع .» (١)

إن الشاعر بوصفه ناقداً مرهف الشعور ، يرى مالايراه الآخرون ، إنه يشخص الداء ويصف الدواء ، وإن غالى فى ذلك ، أو خرج خروجاً ما ، وماذا نقول فى أمة خمول غير ما يقول :

أمة قد فت فى ساعدها	بُغضُها الأهلَ وحبُّ الغُرَبا
تعشقُ الألقابَ فى غير العلا	وتُفَدِّى بالنُّفوس الرتبا
وهى والأحداثُ تستهدفُها	تعشقُ اللهوَ وتَهوى الطربا
لاتبالى لعبَ القومُ بها	أم بها صَرْفُ الليالى لعبا (٢)

ثم يستكمل الشاعر رسمه لتلك الصورة المظلمة الواهنة ، لهذه الأمة الضعيفة ، فيقول :

أفقنا بعد نومٍ فوق نومٍ	على نومٍ كأصحاب الرقيم (٣)
لم يَبْقَ شىءٌ من الدنيا بأيدينا	الإبقيةُ دمعٍ فى مآقينا (٤)

فالشاعر هنا يقرر حقائق عصره ، دون تهويل أو مبالغة أو زيف . انظر إلى قوله : مخاطباً أستاذ الجيل ، أحمد لطفى السيد :

يا كاسىَ الأخلاق فى	بلد عن الأخلاق عارى (٥)

(١) حصاد الهشيم : ص ٣٠٣ .

(٢) الديوان : جـ ٢ ص ٧ .

(٣) الديوان : جـ١ ص ١٠٦ .

(٤) الديوان : جـ٢ ص ١١٩ .

(٥) الديوان : جـ ٢ ص ١١٤ .

ثم استمع إليه ، عندما يصف الصحف ، والقائمين عليها :

جــرائدُ مـــاخُطَّ حـــرفٌ بهـــا   لغـــيــــر تفـــريق وتضليلِ
يحلو بهـــا الكذبُ لأربابهـــا   كــــأنَّهــــا أول إبـريـل [1]

فبدلاً من توجيه رسالتها إلى المجتمع ، تتوجه برسالة أخرى ، أصبحت غايتها فى تلك الآونة ، هى التفريق والتضليل لأبناء الشعب ، ثم بث الفرقة والقطيعة فيما بينهم ، حتى أصبحت ديدناً للكذب ، ومرتعاً للرياء ، وباباً للنفاق .

وهكذا أمكن لحافظ ابراهيم ، أن يكشف عن تلك العورات ، بصورها المختلفة ، وأشكالها المتباينة ، بين بعض فئات الشعب وأفراده ، ممن توطن فى نفوسهم هذا الداء . ولم يكن غريباً على شاعر النيل ، خوض تلك الجوانب ، كما خاض غيرها ، فلم يرض غروره السكوت ، على تلك العلل ، والمخازى ، التى أبانت عن سوءات الأمة ، من فئات ، ليس بالضرورة أن تكون معياراً عليها.

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ١٥٩ .

٣ - متفرقات ساخرة فى شعر حافظ إبراهيم :

لقد استطاع شاعر النيل ، أن يغطى جوانب كثيرة من المجتمع المصرى فى عصره ، مبرزاً مشاكله الحياتية فى ثوبها الحقيقى .

ولم يشغل حافظ بالقضايا الرئيسية فى مجتمعه فحسب ، وإنما وقف منها - جميعاً - موقفاً متوازناً ، فنراه مشفقاً على معاناة الناس ، وضيق ذات اليد ، مع قلة الموارد ، وغلاء لايبقى ولايذر ، حتى ضج الناس بالشكوى ، فلا ملجأ لهم ، إلا من راحم يرحمهم ، أو عادل يتولى أمرهم .

وعندئذ نرى قصيدة كاملة فى غلاء الأسعار ، يعبر فيها الشاعر عن مكامن النفس ، إزاء ما تشعر به وتحس ، فيقول :

أيها المُصْلحون ضاق بنا العيـ ... ـش ولم تحسنوا عليه القياما
عَزّت السِّلعةُ الذليلةُ حتى ... بات مسحُ الحذاءِ خَطْباً جُساما
وغدا القوتُ فى يدى الناس كاليا ... قُوت حتى نَوَى الفقير الصياما
يقطعُ اليومَ طاوياً ولَديه ... دون ريح القُتَار ريحُ الخزامى[1]
ويَخالُ الرغيفُ فى البعد بدراً ... ويظنُّ اللحومَ صيداً حراما
إن أصاب الرغيف من بعد كدٍّ ... صاح:من لى بأن أصيب الإداما؟[2]

لقد ضج الشاعر كما ضج الناس ، فأرسل سخرياته إلى من يملكون زمام الأمور ، صارخاً ، مستغيثاً ، متوسلاً بأسلوبه الحاد ، الذى شكله من قاموسه وألفاظه الخاصة ، التى اتخذها سلاحاً ماضياً للسخر والتهكم .

عاش حافظ حياة الناس وبؤسهم ، ولم يكن - أبداً - منفصلا عنهم ، فعانى ما عانوا ، وشعر بما شعروا ، وأحس بما أحسوا .

---

(١) القُتَارُ : ريح الشواء . والخزامى : نوع من الرياحين .

(٢) الديوان : جـ ٢ ص ١٥٩ .

يقـول ابن حـزم الأندلسى : «الوجع ، والفـقـر ، والنكبـة ، والخـوف ، لايحسُّ أذاها إلا من كان فيـها ، ولا يعلمه من كان خارجاً عنها ، وفساد الرأى ، والعار ، والإثم ، لايعلم قبحها إلا من كان خارجاً عنها ، وليس يراه من كان داخلاً فيها . والأمن ، والصحة، والغنى لايعرف حقَّها إلا من كان خارجاً عنها ، وليس يعرف حقها من كان فيها . وجودة الرأى ، والفضائل ، وعمل الآخرة ، لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها ، ولا يعرفه من لم يكن من أهلها .»[1] فمن يكابد الأشياء ، يعرف مقدارها ، وكان حافظ إبراهيم ممن عقرهم الزمان ، ونال منهم .

غيـر أن شاعر النيل ، يقف بنا على صورة مناقضة لسابقتها ، هى صورة بنبثق من جنباتها القهر ، ويفوح منها الظلم ، ويتبدى فيها التباين ، بين الإنسان والإنسان ، فى الوطن الواحد فينتهز الشاعر حادثة حريق إحدى المدن المصرية فى تلك الآونة ، هى مدينة (ميت غمر) فيقارن بين من يلتحفون السماء ، وآخرون يرفلون فى الرياش والنعيم ، فيشير إلى زواج واحد من أمراء ذلك العصر ، هو الأمير حيدر رشدى فاضل ، من كريمة على فهمى باشا ، حيث أقيم مهرجان عظيم استمر ثلاث ليال ، ويلتقط حافظ كعادته تلك الصورة ، فيبرزها لنا :

أيهـا الرافلونَ فى حُلل الوشـ	ى يجـرونَ للذيول افـتـخـارا
إن فوق العراءِ قوماً جياعاً	يتـاوارون ذلةً وانكسـارا
قد شهدنا بالأمس فى مصر عُرساً	مـلأ العينَ والفـؤادَ ابتـهـارا
سال فيه النُضارُ حتى حسبنا	أن ذاك الفناءَ يجـرى نُضـارا
بات فيـه المنعمـونَ بليل	أخجل الصبح حسنه فتوارى

---

(1) الأخلاق والسير فى مداواة النفوس . تحقيق د . الطاهر مكى - دار المعارف ، ط ثانية ١٩٩٢ . ص ٨١ .

وسمعنا فى (ميت غمر) صباحاً ... ملأ البرَضجةُ والبحارا
جلّ من قسَّمَ الحظوظَ فهذا ... يتغنى وذاك يبكى الديارا [1]

ثم ينتقل بنا شاعر النيل إلى صورة جديدة ، ارتبطت بوجدان المجتمع الجاهل ، تمثلت فى البدع والخرافات ، التى ألفها الناس ، وكأنها أصل من أصول العبادات ، والشرائع السماوية ، فيختار واحدة منها ، تشكل بعضاً من اعتقادات العامة والبسطاء ، ممن فهموا الدين على غير حقيقته ، فاعتبروه درباً من الشعوذة والوهم والخرافة .

ومن تلك الفئة ، من اتخذ من قبور الأولياء وسيلة ، يتقرب بها إلى الخالق ، فيقول حافظ تحت عنوان : (أضرحة الأولياء) :

أحياؤنا لا يرزقونَ بدرهمٍ ... وبألف ألفٍ تُرزقُ الأمواتُ
من لى بحظّ النائمين بحفرةٍ ... قامت على أحجارها الصلواتُ
يسعى الأنامُ لها، ويجرى حولها ... بَحْرُ النذور ، وتُقرأُ الآياتُ
ويُقال:هذا القُطبُ بابُ المصطفى ... ووسيلةٌ تُقضىَ بها الحاجاتُ [2]

لقد درج بعض الناس على تفسير الدين بمنطقهم هم ، وإن توسلوا بالآيات القرآنية ، ولكن بطريقة يختلف ظاهرها عن باطنها .

وهنا تظهر روح حافظ الساخرة ، فى توظيف درامى لهذا المشهد الحى ، التقطه من الواقع الحقيقى ، الذى يراه ويتعامل معه ، فيثور ثورة عارمة مفنداً تلك الاعتقادات ، ومبطلاً هذه المزاعم ، وذلك فى قصيدة تحت عنوان: (إلى الأستاذ الإمام محمد عبده) . فيقول :

إمام الهدى إنى أرى القومَ أبدعوا ... لهم بدعاً عنها الشريعة تعزفُ

---

(١) الديوان : جـ١ ص٢٥١ .
(٢) الديوان : جـ ١ ص ٣١٨ .

رأوا في قبور الميتين حياتهم   فقاموا إلى تلك القبورِ وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم   على صنم فى الجاهلية عُكَّفُ (١)

وإذا كان الشاعر هنا يخاطب شيخه الإمام ، فإنه يقتدى بكلامه ، ويهتدى بعلمه وأفكاره ، التى تشربها تلميذاً مخلصاً من تلاميذه ، فقد حاول الإمام تنقية العقيدة مما شابها من بدع وخرافات ، «وينزه الله عما دخل عليها من فساد ، بالإشراك مع الله والأولياء ، وعبادة الأضرحة، والتشفع بأهل القبور ، وإقامة الموالد ، ونذر النذور ، فالإسلام دين توحيد لاشرك فيه ، تنزيه لا تجسيم فيه ، وهو دين يعتمد على العقل ويستنهضه ، لإدراك أن العالم له صانع واحد ، عالم قادر ، والعقل ضرورى للدين ، فهو الرشيد إليه ، والدين ضرورى للعقل ، لأنه يكمله ويقومه ، والإسلام يفسح صدره للعلم ، ويدعو إليه ، لأن العلم يكشف أسرار الكون ، وذلك يفضى إلى معرفة الله وإجلاله.» (٢)

فالشيخ محمد عبده «لم تمنعه نشأته الصوفية من توجيه النقد الشديد للمتصوفة ، الذين قصروا الحياة الأخلاقية ، أو الدينية ، فى مراعاة رسوم خارجية ، وكذلك الإسراف فى الزهد ، وحملهم مسئولية المفاسد والبدع والخرافات ، فضلاً عن أنه قد هاجم القائلين منهم بوحدة الوجود كمحى الدين بن عربى(٣) وغيره ، وقد التقى فى هذا مع المفكرين السلفيين ، وفى مقدمتهم الإمام ابن تيمية (٤) . وهاجم كذلك مايحدث فى الموالد والأذكار ،

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ٢٢ .
(٢) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث : ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٣) هو محمد بن على بن عربى ، المتوفى (٦٣٨هـ / ١٢٤٠م)
(٤) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام شيخ الإسلام ، المتوفى (٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)

وتعظيم قبور المشايخ والاعتقاد فى سلطتهم.»[1]

وهكذا كان لحافظ موقفٌ معتدلٌ ، ينم عن فطرة سليمة ، تلم بما عليه الشرع الإسلامى الصحيح ، متأثراً فى ذلك بأستاذه ، وسائراً على هديه . ولايزال شاعر النيل يجول بنا ويصول ، متخذاً من سخرياته أداة حادة ، يهوى بها على رؤوس المتخاذلين ، والمنحرفين من أمته .

ففى إحدى قصائده نشاهد مجموعة من العلل والأمراض الاجتماعية ، التى ألفها الناس فى عصره ، غير أنه يبدأها بما يؤكد شخصيته وأهداف سخره . فيقول :

كم ذا يكابدُ عاشقٌ ويلاقى ... فى حب مصرَ كثيرةِ العشاقِ

إنى لأحمل فى هواك صبابةً ... يا مصرُ قد خرجت عن الأطواقِ

لهفى عليك متى أراك طليقةً ... يحمى كريمَ حماك شعبٌ راقي[2]

ثم يعرج الشاعر إلى غرضه الأساسى ، فى نقد الواقع المعيش هازئاً مما يراه ، وكاشفاً عن عيوبه ، فيعرض لصور من الأنماط الاجتماعية ، التى تعيش على هامش الجماعة ، وتسخرها لمصلحتها . فيقول :

كم عالمٍ مدَّ العلومَ حبائلاً ... لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ

وفقيهِ قومٍ ظل يرصدُ فقهَهُ ... لمكيدة أو مستحلٍ طلاقِ

يمشى وقد نصبت عليه عمامةٌ ... كالبرج لكن فوق تل نفاقِ

يدعونه عند الشقاق وماداروا ... أن الذى يدعونَ خدنُ شقاقِ[3]

---

(1) التيارات السياسية والاجتماعية. بين المجددين والمحافظين دراسة تاريخية فى فكر الشيخ محمد عبده - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣ . ص ١١٢ .

(2) الديوان : جـ١ ص ٢٧٩ .

(3) الديوان : جـ ١ ص ٢٨٠ .

وبعد أن يسخر الشاعر من هذا الفقيه المنافق ، الذى أظهره فى هذا المشهد (الكاريكاتورى) ينتقل إلى الطبيب ، غير أنه ليس طبيباً كالأطباء، وإنما هو نوع لـه ملامحه وسماته الخاصة ، تلك التى ينفر منها المجتمع، كما ينفر منها حافظ . فيقول :

وطبيبِ قومٍ قد أحل لطبه	مالاتحلُ شريعةُ الخلاقِ
قتل الأجنة فى البطون وتارة	جمع الدوانق من دمٍ مهراقِ
أغلى وأثمن من تجارب علمه	يوم الفخار تجارب الحلاق [(1)]

ومن ثم تترى هذه المشاهد ، التى صورها الشاعر كما هى ، بعد أن انتقاها من الواقع الطبيعى لفئات بذاتها وأنواع بعينها ، فينتقل إلى مهندس النيل ، وهى وظيفة مهمة فى عهد الشاعر ، حيث ندرة المياه ، والتحكم فيها ، وكان ذلك قبل بناء السد العالى ، فقد كانت المياه تأتى مع الفيضان من كل عام ، لتذهب مرة أخرى إلى البحر ، ولم يتبق منها إلا القليل ، الذى لايكاد يكفى حاجة البلاد ، فكان ذلك مدعاة للرشوة والانحراف ، ومن ثم يصف الشاعر واحداً من هؤلاء . فيقول :

ومهندس للنيل بات بكفه	مِفتاح رزقِ العاملِ المطراقِ
تندى وتيبسُ للخلائق كفُّهُ	بالماء طوع الأصفر البراق
لاشئ يلوى من هواه فحده	فى السلب حد الخائن السرّاق [(2)]

ثم يكشف حافظ عن صورة أخرى ، لاتقل أهمية عن سابقتها ، لما لها من أثر فى نفوس الناس ووجدانهم ، يتناول فيها شخصية الأديب ، الذى

---

(1) الديوان : جـ ١ ص ٢٨١

(2) الديوان : جـ ١ ص ٢٨١ .

لايبدع سوى الزيف والافتراء ، متلاعباً بالألفاظ ، التى تأخذ بلباب القارئين وأسماعهم . فيقول :

وأديبِ قـومٍ تسـتـحقُ يمينُهُ ... قطع الأنامل أو لظى الإحـراقِ
يلهـو ويلعبُ بالعـقـول بيـانُه ... فكأنه فى السـحـر رقـيـةُ راقى
فى كـفـه قلمٌ يمجُ لعـابُه ... سـمـاً وينفـثُه على الأوراقِ
يرد الحـقـائقَ وهى بيضٌ نصعٌ ... قـدسـيـةٌ علويةُ الإشـراقِ
فـيـردُها سـوداً على جنبـاتها ... من ظلمـة التـمـويه ألفُ نطاقِ
عـريتْ عن الحق المقـدس نفسُه ... فـحـيـاتهُ ثِقْلٌ على الأعناقِ
لو كـان ذا خلقٍ لأسـعـد قـومَه ... ببـيـانه ويَراعِه السـبـاقِ [1]

لقد فند شاعر النيل تلك الشخصيات ، غير الانسانية ، بذات الأسلوب والطريقة التى ابتدعها ، فوقف منها جميعاً موقف المخاصم ، والمقاطع، والعدو ، حتى يظهرها بصورة من جنسها ، تتآلف فيها أشكال من الدمامة، والوضاعة ، واللاأخلاقية ، مبتعدة عن عالمها المثالى ، والإنسانى الرفيع .

«ولا يزال حافظ يصف تلك العلل وأمثالها ، ويُرشد إلى علاجها ، والتخلص منها ، ومن آفاتها ، بروح الصادق المخلص الأمين ، وحافظ فى هذا اللون من الشعر الاجتماعى . سابق لشعراء العرب جميعاً ، فمن قبله لم تعرف العربية شاعراً اجتماعياً من طرازه.» [2]

لقد سخر حافظ من كل ما عنَّ له فى مجتمعه ورآه ، ومن ذلك تربية النشء ، غير أن الشاعر لم يسهب كثيراً فى هذا الجانب ، الذى جاء فى أبيات قليلة ، وإشارات يسيرة ، فيقول :

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) فصول فى الشعر ونقده : ص ٣٥٧ .

أنابتة العصر إن الغريب — مُجد بمصر فلا تلعبى

يقولون : فى النشء خيرٌ لنا — وَ للنشءُ شرٌ من الأجنبى

أفى (الأزبكية) مثوى البنين — وبين المساجد مثوى الأب [1]

ويسخر حافظ من بائع كتب صفيق الوجه ، كما نعته فى بيتين من الشعر ، يصفه فيهما بأقبح الصفات ، بعد أن يجعله مادة خصبة ، ومجالاً ثرياً من مجالات السخر والاستهزاء . فيقول :

أديمُ وجهك يازنديقُ لو جُعلت — منه الوقايةُ والتجليدُ والكتبِ

لم يَعْلُها عنكبوت أينما تركت — ولا تخاف عليها سطوة اللهبِ [2]

وتتأصل السخرية فى نفس شاعر النيل ، فتأخذ أبعاداً متباينة فى أشعاره ، غير أنها لم تكن سخرية وقتية هشة ، بقدر ماكانت سخرية تغوص فى الأعماق ، وتتلاقى مع الجذور الحقيقية لواقعه .

ومن ثم فقد أخذت ملكة السخر فى التنامى والارتقاء ، حتى سخرت من كل شىء ، مهما كان ، وأياً كان ، وإن خسر الدنيا كلها ، فيسخر من رؤسائه فى الجيش من «كينشنر» الإنجليزى ، ومن رفعت بك المصرى ، معرضاً نفسه للقسوة والإيذاء ، غير عابئ بشىء من ذلك .

«وقد بلغ حنق كنشنر من حافظ أنه كتب أمام ملفه الخاص : «لا يرفت ولا يرقى» ليمسكه تحت سلطانه للتنكيل به وتعذيبه.»

وكان حافظ لا يكتم دفائن صدره . فقد كانت فيه سذاجة وفيه دعابة . وهما خلتان بارعتان فى التشنيع والتشهير . وهما إذا اجتمعتا كانتا بلاء على صاحبهما وعلى الناس .[3]

(١) الديوان : جـ ١ ص ٢٥٧ .
(٢) الديوان : جـ١ ص ١٦١ .
(٣) حياة حافظ لأحمد محفوظ : ص ٢٩ ، ٣٠ .

كان رئيس فرقته رفعت بك يكرهه ، ويرفع التقارير السيئة عنه ، إذ كان حافظ يعمل الأراجيز فى ذمة ، يحدو بها هو وأصحابه ، فمنها قوله: (١)

تراه إذ ينفخ فى المزمار ... تحسبه فى رتبة السردار

يجتنب العاقل والنبيها ... ويعشق الجاهل والسفيها

ويتهكم حافظ على لسان اللغة العربية ، ممن نادوا بوأدها ، وإحلال العامية بدلاً منها ، سواء من المستشرقين ، أو من أبناء الوطن أنفسهم ، ممن يسيرون فى ذات الفلك ، «فقد تصادف فى إبّان هذه الفترة ، أن اكفهرّت الأجواء الأدبية ، بحملة رهيبة على لغتنا الفصحى ، وارتفع ضجيج ينادى بأنها لاتمثل البلاد العربية الناطقة بها ، وخيرٌ لكل بلد عربى أن يستخدم مكانها لغته المحلية ، واختلط هذا الضجيج بأصوات بعض المستشرقين الإنجليز ، يروجون للدعوة ، حتى تنفصم عُرَى الوحدة العربية ، ويتنابذ أهلها تنابذاً لايجتمعون بعده ، واستشاط الجندى القديم غضباً للغة القرآن الكريم، واستل قلمه ، وطعن به دعوة القوم طعنة نجلاء ، بقصيدته الخالدة على لسان الفصحى ، ولم تقم للقوم بعد هذه الطعنة قائمة . فيقول : (٢)

رجعتُ لنفســى فاتهمت حصاتى ... وناديت قومى فاحْتَسَبْتُ حياتى

رَمَوْنى بعُقْمٍ فى الشَّباب ولَيتَنى ... عَقِمْتُ فلـَم أجْزَعْ لقَوْلِ عُداتى

وَلَدْتُ ولَما لَم أجِـدْ لعرائسِـــى ... رجـالاً وأكْفـــاءً وَأدْتُ بَناتى

وســعْتُ كِتابَ الله لَفْظًا وغايــةً ... وما ضقْتُ عـن آيٍ بـه وعظات

فكيف أضيقُ اليومَ عن وَصْفِ آلَةٍ ... وتَنْسيقِ أســماءٍ لمُخترعَاتِ(٣)

(١) المقدمة : ص ١٣ .

(٢) فصول فى الشعر ونقده : ص ٣٥٣ .

(٣) الديوان : جـ١ ص ٢٥٣ .

ويبرز شاعر النيل ، على لسان اللغة العربية ، سخريتها ، واستهجانها، وثورتها ، لما يقوم به بعض أبنائها في مصر ، من تقليد للغات الأجنبية الوافدة ، التي لم تصل في عراقتها إلى العربية ، فلا هي عربية واضحة ، ولا هي أجنبية خالصة .

وأسمع للكُتّاب في مصر ضجةً فأعلم أن الصائحين نُعاتي
أيَهْجرني قومي - عفاالله عنهمُ إلى لغة لم تتصل بُرواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى لعابُ الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوبٍ ضمَّ سبعينَ رُقعةً مُشكّلة الألوانِ مختلفاتِ [1]

لقد سار بعض من ضعاف النفوس في كنف تلك الدعوة ، بل كانوا من أنصارها ودعاتها المخلصين .

وكان «ويليام ولكوكس» مهندس الري الإنجليزي أحد رؤس هذه الدعوة، قد ألقى خطبة في نادي الأزبكية سنة ١٨٩٣ ، جعل عنوانها : «لِمْ لمْ تُوجد قوة الاختراع لدى المصريين» وادعى أن سبب ذلك ، هو استخدامهم للغة العربية الفصحى ، في القراءة والكتابة ، ونصحهم باتخاذ العامية آداة للتعبير الأدبي ، اقتداء بالأمم الأخرى .[2]

ومن هنا فقد تجاذبتها الأقلام ، وتصادمت فيها الآراء ، ولاكتها مقالات الصحف والمجلات ، ففتحت بذلك مجالاً حياً ، يستهوي ذوي الضمائر الخبيثة ، ممن لا يضمرون عداءً لهذه اللغة ، بقدر ما يأخذونها باباً لتحقيق أهدافهم الدنيئة ؟ !! [3]

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٢) د . عبد الرشيد سالم : النهضة الأدبية وعواملها في مصر - مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٨٢ : ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٣) انظر : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ٢ : ص٣٤١ وما بعدها .

وقد أثنى أمير الشعراء أحمد شوقى على شاعر النيل ، لموقفه هذا ، فقال فى رثائه :

ياحافظَ الفصحى وحارسَ مجدها	وإمـــامَ من نجلت من البلغـــاءِ
مـازلتَ تهتفُ بالفصيح وفـضله	حتى حميت أمانةَ القدماءِ [1]

ثم ينتقل شاعرنا إلى موضوعٍ إنسانى آخر ، جاء فى معرض نقده وسخرياته ، نرى فيه صورة تعد سابقة لعصره ، فقد زار متحف مصر ذات يوم ، فهالته مشاهد جثث المصريين القدماء ، بعد أن نبشت عنها القبور ، وقطعت بينها أستار الغيب ، فانتهكت بذلك حرماتها ، وقد باتت تعرض على الناس ، بعد أن كانت في عالمها السرمدى ، لا تتطلع إليها العيون ، ولا ترقبها الأبصار . فيقول:

قـد زرت مـتـحفَ مـصـرَ	فى ظهـر يوم الخـمـيس
فى زمـرة من رفـاقٍ	غـر الشـمـائل شـوسٍ [2]
فـضـقت ذرعـاً بـأمـرٍ	على النفـوس بئـيسَ
وكـدت أصـرع غـمـاً	لحظّهـا المعكوس
وصـرعـة الغم أدهى	من صـرعـة الخندريس [3]
رأيت جـثـة (خـوفـو)	بقـرب (سـيزو سـتريس)
فـقلت ياقـومُ هذا	صُنع العـقـوق الخسـيس
أجـسـاد أمـلاك مـصـر	وشـائدى ممفـيس
من بعـد خـمسينَ قـرناً	لم تسـتـرحْ فى الرمـوسِ

(١) الشوقيات : جـ ٣ ص ٢٢ .

(٢) شوس : النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً .

(٣) الخندريس : الخمر .

أرى فـــراعين مـــصـــرَ فـى ذلـةٍ ونُحــــوس
مـــعـــروضـــة للبـــرايا أجـــســـادهم بالفلوسِ [1]

ومن ثم رأينا ، كيف ، حاول شاعر النيل النهوض بشعبه وأمته ، مسخراً ملكاته الأدبية والابداعية من أجلها ، فعمل لها وأخلص ، يسير فى ذلك مع المصلحين من ، الذين أدركوا أن صلاح الأمة يكمن فى تربية أبنائها ، وترقية نفوسهم ، وتغيير طبائعهم وعاداتهم ، التى توارثوها عبر قرون طويلة من الجهل والتخلف .

سار حافظ مصرياً عصرياً فى فلك هؤلاء ، ممن جعلوا تربية الأمة غايتهم وهدفهم الأول[2]. فعلى قدر ارتقاء شخصية الفرد ، تزيد قيمته وفائدته لنفسه ، وبالتالى يصير قادراً على زيادة قيمته وفائدته لغيره ، وكلما كانت حياة الأفراد أكثر أمتلاءً ، وأوسع نطاقاً ، كانت حياة الجموع المؤلفة من هؤلاء الأفراد ، أغزر مادةً ، وأفسح مجالاً [3] وأقوى تأثيراً ، وأهنأ حالاً .

تلك قضية شاعر النيل ، فى مسعاه ، وحربه الشعواء ، التى لم تنطفئ، ولم يخفت ضوؤها ، وإنما ظلت زاداً ، ونبراسا ، لمن جاء بعده من أجيال .

وهكذا تبلورت هذه القضية فى ديوانه ، حتى أضحت ميثاقاً اجتماعياً، وقانوناً عرفياً ، تطلعت إليه الأجيال ، وتأثرت به ، فى بناء نهضتها الحديثة .

---

(١) الديوان : جـ ١ ص ١٠٥ .

(٢) أمثال : الشيخ محمد عبده .

(٣) جون استيوارت مل الحرية : ترجمة طه السباعى : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ : ص ٩٦ ، ٩٧ .

إنها رسالة الشعر الحقيقية ، الرامية إلى دور الأمة وتطلعاتها ، فلاقت مكاناً فى القلوب ، وملكت موضعاً فى النفوس ، وتشربت بضوئها الأرواح، مجسدة دور الكلمة ورسالتها ، عبر أحقابها البعيدة ، وأزمانها السحيقة .

ومن ثم يصير «الشعر تعبيراً عن الحرية الكامنة ، فى وحدة الإنسان الشاملة والسرمدية ، إنه يهتم بالمجتمع ، كمجموع للنزعات الغريزية المشتركة ، وحارساً لها ، فهو كما يتحدث عن الحب والأمل ، يتحدث عن الحزن واليأس. » [1] اسهاماً منه في نهضة الأمم وتطور الشعوب ، وتلك رسالته ، وغايته الكبرى .

يقول تشومسكى : «سيظل الأدب قادراً إلى الأبد ، على إعطائنا استبصارات عميقة ، بما نسميه «الشخصية الإنسانية الكاملة» أكثر مما يأمل أى شكل ، من أشكال الاستقصاء العلمى فى تقديمه . »[2]

هذا ما عمل له المصلحون ، وأمن به المفكرون ، ممن تواتروا على البشرية، عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، وكان حافظ فى موضع ما ، من صرحهم الإنسانى الكبير .

يقول الدكتور طه حسين : «رحم الله حافظاً ، لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما كانت مصر كلها ، بل الشرق كله ، بل الإنسانية كلها فى كثير من الأحيان ، تعيش فى هذا الرجل ، تحس بحسه ، وتألم بقلبه ، وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين الشعراء هذه الأيام شاعراً، جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة ، لحياة نفسه ، ولحياة شعبه ، كحافظ

---

(١)كريستوفر كودويل : الوهم والواقع دراسة فى منابع الشعر . ترجمة توفيق الأسدى ، ط أولى دار الفارابى - بيروت ١٩٨٢ ص ١١٠ .

(٢) مارتن ليندار : الدراسات النفسية للأدب ترجمة : د . شاكر عبد الحميد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦ . (مقدمة المترجم) .

رحمه الله . [1]

لقد عد حافظ إبراهيم ، علماً من أعلام الحرية ودعاتها ، فى بدايات هذا القرن ، على الرغم مما كان يعتريها من عقبات ، وما يحول دون تحقيقها من عثرات ، فالدعوة إلى الثورة نوع من الحرية ، والدعوة إلى النهضة نوع من الحرية ، ومحاربة العلل والعيوب الاجتماعية ، نوع من الحرية .

ذلك ما نادى به ، شاعر النيل ، طوال حياته ، باعتباره جندياً مخلصاً من جنود الرأى والحرية .

غير أن ذلك لم يكن ليتحقق ، إلا بوصفه «صديق الشعب كله ، صديق الفقراء والأغنياء وأوساط الناس ، صديق العلماء المستنيرين ، وصديق غيرهم من الذين لاحظ لهم من ثقافة ، أو ليس لهم من الثقافة إلا حظ ضئيل ، تراه فى كل بيئة ، وتراه فى كل مكان ، تراه فى حديقة الأزبكية يقرض الشعر ، وتراه فى الشوارع ، يماشى أصدقاءه باسم الثغر ، مشرق الوجه ، مظلم النفس ، ضاحكاً مما يحزن ومما يسر . خالط الناس جميعاً، فأصبح هو الناس جميعاً ، وصور نفسه فى شعره ، فصور بها الناس جميعاً .»[2]

---

(1) حافظ وشوقى ص ١٥٣ .

(2) المرجع السابق : ص ٢٠٨ .



الخـاتمة:

تتبعنا فى مسيرتنا مع شاعر النيل كيف كان تصويره لشعبه، خـلال ما تفتقت عنه قريحته الإنسانية من إبداعات، سواء أكـانت شـعرية خالصـة أم نثرية جامدة. غير أننا وجدنا أن ذلك كله قد تبلور فى نقاط عدة، نجملها فى:

– انفردت شخصية حافظ بسمات قلما نجدها فـى غيره؛ إذ جمعت بين النقيضين، غير أنها شخصية بائسة حزينة، تتألم مـن أى شـىء، ولأى شىء. ولم يكن حافظ مصطنعًا للبؤس، كمـا يـرى البعض، وإنمـا كـان ذلـك سمة ملازمة له، وتشكل ملمحًا مهمًا من شخصيته، لايكاد يفارقه أبدًا، حتى وإن ضحك وسخر.

– لاتمثـل الفكاهـة عنـد شـاعر النيل سـوى مـا يجمعه بالأصدقـاء، سواء فى الجلسات العامة أو فى لقاءاتـه الخاصـة، وسـواء أكـان ذلـك بين نفر قليل أم جمع غفير.

– أشعاره فى باب الفكاهة امتداد لما كان يبدعه فى هذا الإطار مـن نثر، إذ هى نكات جـاءت نظمًـا، ويفتقد أغلبهـا الشـعرية الجـادة والتصويـر الخلاق، غير أنها تمثل الجانب المضىء من شخصيته الإنسانية.

– أما عن السخرية فـى شعره فإنهـا بنـاء شـامخ، غير أنهـا بنـاء متعدد النوافذ، تأخذ بنا من باب إلى بـاب عبر نوافذهـا المتشـعبة، إذ هـى أشـبه بنبـع واحـد، تنبثـق منـه ردهـات شـتى، كلمـا بعدت عن منبعهـا زاد اتساعها. فإذا كانت الفكاهة تمثل عنـده جانبًا واحدًا، هـو جـانب الأصدقـاء والخلان، وتكشف كذلك عن جوانب خاصة من شخصيته، على ما فيهـا مـن نقـد متواضـع، إلا أنهـا تظـل لها تلك الخصوصيـة وحسـب. غيـر أن السخـريـة فى أشعـاره تتمحـور فى جـوانب مهمـة، أخـرجهـا

للناس فى ثوبها الرفيع ناقدة لقضايا عصرها، ولم يكن ذلك وقفًا على قصيدة بعينها، كما نرى عند غير شاعر، بل قلما تخلو قصيدة عند حافظ من هذا الجانب. وإذا كانت قصائده الفكاهية قد جاءت، فى أغلبها، فى أشعار ركيكة لاترقى إلى إبداعه الجاد، فقد كانت أشعاره الساخرة، التى هى غالبية شعره، تنم عن منطق من الحكمة والتصوير، والتطلع الذى نطقت به حواسه، وجاشت به نفسه زهاء سنين طويلة، كانت ذات تحول كبير فى حياة مصر والمصريين.

- إن السخرية فى شعر حافظ لم يكن هدفها الفكاهة والضحك، كما أسلفنا، وإنما هى تخرج جملة من هذا الباب، إذ تعد فى طليعة النقد الهادف الذى سلكه حافظ وعمل له، فشكل بذلك منظورًا من النقد، كشف عن جوانب من القصور لدى شعبه وأمته.

- إن الناظر فى أشعار شاعر النيل والدارس لشخصيته، لايجده مجرد شاعر، كبقية الشعراء من معاصريه، وإنما يجد ثمة فوارق جمة، إذ تعدو قصائده فى مضمار النقد بخطى متلاحقة، سواء أكان اجتماعيًا أم سياسيًا أم وطنيًا.

ولسنا هنا فى مقام الدفاع عن حافظ بوصفه رمزًا من رموزنا الوطنية، إذ إن ذلك كله قد كشف عنه فى جلاء، فقد تميز بخصيصتين: الأولى: أنه وطنى بالطبيعة. أما الثانية: فقد استطاع أن يعبر عن تلك الوطنية شعرًا، كما عبر أيضًا عن وطنية أعلام عصره، وكأنهم هم الذين يعبرون عن ذواتهم، وإن جاءت على لسان شاعر النيل.

تلك جوانب من شخصية حافظ، ففى سروره يضارع ظرفاء عصره، كالبشرى والبابلى وغيرهما. وفى معاركه مع الإنجليز يقف على قدم

المساواة مع أعلام جيله الوطنيين. أما فى الجوانب الاجتماعية فتفيض عبراته دمًا على الأيتام وساكنى الملاجئ. وعندما عبر عن المرأة لم يخرج عما نادى به قاسم أمين ومحمد عبده، وإن وقف موقفًا وسطًا فى دعوته، غير أنه لم يخرج فيها عن نطاق الإسلام فى نظرته للمرأة، تلك التى جمعت بين العلم والتربية فى آن واحد.

وعندما عبر عن الإسلام، أبان عن فيض شعورى مرهف، كشف عن شفافية نفسه وسموقها.

وهكذا أبانت شخصية شاعرنا عن أهدافها، التى أفنى فيها عمره وحياته، مصريًا مخلصًا ووطنيًا فريدًا، متوحدًا مع هذه الأم التى أرضعته، ومات على صدرها، وإن بكى وشقى وتألم.



المصادر والمراجع :

أولاً :- كتب عربية :

القرآن الكريم

إبراهيم عبد القادر المازنى :

- حصاد الهشيم دار الشعب - القاهرة (د . ت)

أحمد أمين :

- زعماء الإصلاح فى العصر الحديث - الطبعة الرابعة - مكتبة النهضة المصرية - القاهر ١٩٧٩ .

أحمد الحوفى (دكتور) :

- الفكاهة فى الأدب - أصولها وأنواعها - مكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة (د . ت)

أحمد شوقى :

- الشوقيات - دار الكتاب العربى - بيروت (د . ت) .

أحمد عبيد :

- ذكرى الشاعرين - شاعر النيل وأمير الشعراء - دراسات ومراثٍ ومقارنات (مجموعة) ط أولى : المكتبة العربية دمشق ١٣٥١ هـ .

أحمد محفوظ :

- حياة حافظ - الناشر العربى القاهرة (د . ت)

أحمد هيكل (دكتور) :

- تطور الأدب الحديث فى مصر - الطبعة الخامسة - دار المعارف - القاهر ١٩٨٧ .

بدوى طبانة (دكتور) :

- نظرات فى أصول الأدب والنقد - الطبعة الأولى - عكاظ للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية ١٩٨٣ .

(ابن القاضى) الوزير جمال الدين أبى الحسن :

- كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء - مكتبة المتنبى القاهرة (د . ت)

د. جمال حمدان :

- الشخصية المصرية - (دراسة فى عبقرية المكان) الطبعة الثالثة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٤ . ص ٥٤٤ .

حافظ إبراهيم :

- ديوان حافظ إبراهيم - دار العود - بيروت - (د . ت)

- ليالى سطيح - مطبعة محمد مطر بالحمزاوى بمصر (د.ت)

حامد عبده الهوال (دكتور) :

- السخرية فى أدب المازنى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٢ .

حسن كامل الصيرفى :

حافظ وشوقى - مطبعة المقتطف والمقطم - القاهر ١٩٤٩

.

حسين المهدى الغنام :

حافظ إبراهيم - دراسة وتحليل ونقد - المطبعة الإسلامية بالاسكندرية ١٩٣٥ .

خير الدين الزركلى :

- الأعـلام - دار العلم للمـلايين - بيـروت - لبنان ١٩٧٩.

روفائيل مسيحه :

- حافظ إبراهيم الشاعر السياسى - مطبعة الاعتماد - القاهرة ١٩٤٧ .

زكريا إبراهيم (دكتور) :

- سيكلوجية الفكاهة والضحك - مكتبة مصر - القاهرة (د.ت)

زكريا سليمان بيومى (دكتور) :

- التيـارات السيـاسيـة والاجتـماعيـة بين المجـددين والمحافظين - دراسة تاريخية فى فكر الشيخ محمد عبده - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٣ .

سـليم حسـن :

- الأدب المصرى أو أدب الفراعنة - الطبعة الثانية - مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩١ .

(ابن خلكان) : أبو العباسى شمس الدين أحمد بن محمد :

- وفيات الأعيان وأبناء الزمان - تحقيق : د. إحسان عباس - دار صادر بيروت - لبنان (د. ت) .

شوقى ضيف (دكتور) :

- فصول فى الشعر ونقده - الطعبة الثالثة - دار المعارف- القاهرة ١٩٨٣ .

- الفكاهة فى مصر - س إقرأ - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٨ .

صالح جودت :

- بلابل من الشرق - س إقرأ - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٤ .

طه حسين (دكتور) :

- حافظ وشوقى - الطبعة الأولى - مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٣٣

- مستقبل الثقافة فى مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٣٣ .

عباس محمودد العقاد :

- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى - مطبعة حجازى- القاهرة ١٩٣٧ .

- ديوان العقاد : منشورات المكتبة العصرية - صيدا - لبنان -(د . ت)

- مطالعات فى الكتب والحياة - مطبعة الاستقامة - القاهرة (د . ت)

عبد الحميد سند الجندى (دكتور) :

- حافظ إبراهيم شاعر النيل - الطبعة الثالثة - دار المعارف- القاهرة ١٩٨٣ .

عبد الرحمن الرافعى :

- ثورة ١٩١٩ (تاريخ مصر القومى من ١٩١٤ - ١٩٢١) الطبعة الرابعة - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٧ .

- شعراء الوطنية فى مصر - الطبعة الأولى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٤ .

عبد الرشيد سالم (دكتور) :

- النهضة الأدبية وعواملها فى مصر - مكتبة وهبة - القاهرة - ١٩٨٢ .

عبد العزيز رفاعى (دكتور) :

- الطابع القومى للشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٧١ .

عبد المنعم شميس :

- قهاوى الأدب والفن - س إقرأ - دار المعارف - القاهرة١٩٩١

عمر الدسوقى :

- فى الأدب الحديث - دار الفكر العربى - القاهرة (د.ت)

(الجاحظ) عمرو بن بحر :

- البيان والتبين - تحقيق حسن السندوبى مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٧ .

- رسائل الجاحظ : تحقيق : عبد السلام هارون - مكتبة الخانجى - القاهرة - ١٩٧٩ .

(ابن حزم الأندلسى) أبو محمد على بن أحمد بن سعيد :

- الأخلاق والسير فى مدواة النفوس - الطبعة الثانية - تحقيق د. الطاهر أحمد مكى - دار المعارف - القاهرة ١٩٩٢ .

(ابن النديم) محمد بن اسحق :

- الفهرست الطبعة الأولى تحقيق د. ناهد عباس عثمان- دار قطرى بن الفجاءة - قطر ١٩٨٥ .

محمد حسين (دكتور) :

- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر الطبعة الثالثة - مكتبة الأداب - القاهرة ١٩٨٠ .

محمد صبرى وآخرون :

- حافظ ابراهيم : (مهرجان حافظ ابراهيم بالاسكندرية ١٩٥٧) - المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧.

محمود رزق سليم :

عصر سلاطين المماليك الطبعة الثانية - مكتبة الآداب- القاهرة ١٩٦٢ .

محمود سامى البارودى :

ديوان البارودى المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٣ .

ثانياً :- كتب أجنبية مترجمة :

جون استيورات مل :

- الحرية - ترجمة طه السباعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٦ .

فيكتور هوجو :

- البؤساء - الطبعة الرابعة - ترجمة حافظ إبراهيم - مكتبة الهلال بالفجالة مصر ١٩٢٣ .

كرستوفر كودويل :

- الوهم والواقع - دراسة فى منابع الشعر - ترجمة توفيق الأسدى - الطبعة الأولى - دار الفارابى - بيروت ١٩٨٢

مارتن ليندأور :

- الدراسات النفسية للأدب - ترجمة د. شاكر عبد الحميد - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ١٩٩٦ .

هنري برجسون :

- الضحك ترجمة سامى الدروبى وآخر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٧ .

ثالثاً :- المعاجم ، والقواميس ، والموسوعات :

أحمد حسين :

- موسوعة تاريخ مصر - دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠.

فؤاد عبد الباقى :

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - بيروت - لبنان- (د . ت)

الفيروزابادى : الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم :

- القاموس المحيط - دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان - (د - ت)

الفهرس

كتب للمؤلف

١ - رؤية الوجود فى شعر طاهر أبو فاشا - مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة : ١٩٩٦.

٢ - الفكاهة والسخرية عند حافظ إبراهيم - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ١٩٩٧.

٣ - بين الواقع والفانتازيا (رؤية نقدية تحليلية) فى مسرحية (زيارة للجنة والنار) للدكتور مصطفى محمود - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ١٩٩٨.

٤ - التناص القرآنى فى شعر أمل دنقل - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ١٩٩٨ .

٥ - جانب الثورة والعقيدة فى شعر المتنبى - دار العلم للنشر والتوزيع ، القاهرة : ١٩٩٨ .

٦ - هزيمة ٦٧ فى الشعر العربى فى مصر - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ١٩٩٩.

٧ - الأسلوبية فى الخطاب العربى - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٠ .

٨ - مظاهر الفن والجمال فى الشعر الحديث - دار العلم للنشر والتوزيع ، القاهرة : ٢٠٠١ .

٩ - دور الشعر العربى فى مصر بعد هزيمة يونيو ٦٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ٢٠٠٢ .

١٠ - النقد التطبيقى فى القصة القصيرة - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٣ .

١١ - أدب الجسد بين الفن والإسفاف (دراسة فى السرد النسائى) - مركز الحضارة العربية ، القاهرة : ٢٠٠٣ .

١٢ - التناص الأسطورى في شعر محمد إبراهيم أبو سنة - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٣ .

١٣ - القيم الإنسانية فى أدب الأطفال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٣ .

١٤ - ملامح الخطاب السردى فى قصص أحمد عبد العال - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٤ .

١٥ - تناصات القهر والأحزان - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٤ .

١٦ - رحلة طفل مصرى وحكايات أخرى (مجموعة قصصية للأطفال) - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٤ .

١٧ - الأخلاق الطيبة والأخلاق الشريرة ، النملة الكسول (مسرحيتان للأطفال) - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : ٢٠٠٤ .

١٨ - الأثر التربوى فى أدب الفراعنة (تحت الطبع) .